

معركة

فتح قسطنطينية

دار الشرق العربي

بيروت - شارع سورية - بناية درويش



معركة فتح القسطنطينية

معارك حربية فاصلة

عربية وإسلامية

معركة
فتح القسطنطينية

٨٥٧ هـ / ١٤٥٢ م

الدكتور صالح الأشتر

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش



سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات، من القرن الهجري الرابع الى العصر الحديث.

١ - مَعركة الحدث الحمراء ٢ - مَعركة الزلاقة
٣ - معركة حطين ٤ - مَعركة الارك
٥ - مَعركة المنصورة ٦ - مَعركة عين جالوت
٧ - مَعركة فتح القسطنطينية ٨ - معركة وادي المخازن
٩ - مَعركة ميسلون ١٠ - مَعركة الجبل الأخضر

شارك في تحرير هذه السلسلة

الدكتور صالح الأشتر
والدكتور عمر الدقاق
والأستاذ محمد الانطاكي

وأشرف على إصدارها

الدكتور صالح الأشتر

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه الا القادرون على الموت في سبيله

حكايةٌ طويلة

حكايةُ فتحِ القسطنطينيةِ في التاريخِ العربيِّ والإسلاميِّ حكايةٌ طويلةٌ... فقد ظَلَّ الاستيلاءُ على العاصمةِ البيزنطيّةِ أملاً من آمالِ المُسلمين مُنذُ الصَّدرِ الأوّلِ من الإسلامِ، وهدفاً عظيماً من أهدافِهم عَبْرَ القُرونِ: فشهدتْ أسوارُ القسطنطينيةِ المنيعةُ الأساطيلَ البحريةَ العربيةَ والجيوشَ الإسلاميةَ الزاحفةَ، وهي تُشَدِّدُ الحصارَ مرّاتٍ عليها قبلَ أنْ ترتَدَّ عنها، وبقيتِ العاصمةُ البيزنطيّةُ مُستَعْصِيَةً على الفاتِحينَ المُسلمين، طَوالَ العَهْدَيْنِ الأُمَويِّ والعبّاسيِّ، على الرغمِ من التضحياتِ العربيةِ الكبيرةِ وما انطَوَتْ عليه من بُطُولاتٍ وأمجادٍ...

وعندما تمزّقَتِ الخلافةُ العباسيةُ إلى دُويلاتٍ صغيرةٍ متَنافِسَةٍ، وظهَرَ عجزُها عن حمايةِ الثُّغورِ العربيةِ تُجاهَ الخطرِ البيزنطيِّ المُتَزايدِ عليها، ازدادَ طمعُ البيزنطيينَ في ديارِ الإسلام، وغدتْ جُيوشُهُم تَتَهيَّأُ لِمُوالاةِ الزحفِ على المشرقِ العربيِّ، مُوقِنَةً بتحقيقِ النصرِ، أمامَ انحلالِ القُوّةِ العربيةِ وَوَهْنِ شَوْكَتِها وانحسارِ موجَتِها.

هنا ينهضُ الأتراكُ السلاجقةُ بدورِهم المجيدِ في التصدِّي للعدوِّ الزاحفِ وردِّهِ على أعقابِهِ ، بعد انتصارِهِم العظيمِ على الجيوشِ البيزنطيّةِ في معركةِ مَلازكرد (عام ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م) التي يعدُّها المؤرخون أكبرَ فوزٍ للمسلمين على الأمبراطوريَّةِ البيزنطيّةِ بعد معركةِ اليرموكِ ، وعلى أثرِ هذا الانتصارِ الساحقِ انهارَتْ وسائلُ الدفاعِ البيزنطيّةُ عن بَرِّ الأناضولِ ، وأصبحتْ أبوابُهُ مفتوحةً أمامَ الزحفِ الاسلاميِّ من جديد.

وهكذا حَمَى الأتراكُ المسلمون ديارَ العُروبةِ والإسلامِ في المشرقِ من الخطرِ البيزنطيِّ الدّاهمِ ، وتمكَّنُوا من صَدِّهِ ودَحْرِهِ ، وأقاموا دولَتَهُم السلجوقيَّةَ الروميّةَ — كما يُسمّيها المؤرخون — في بلادِ الرومِ ، فوق هضابِ الأناضول ، وأتاح واحدٌ من سلاطينهم (علاء الدين) لِرأْسِ العشيرةِ التركمانيةِ العثمانيةِ أَنْ يُقيمَ إمارَتَهُ الصغيرةَ في مقاطعةٍ مُحاذيَةٍ للحدودِ البيزنطية ، لِيجعَلَ منها في وجه البيزنطيين درعاً واقيةً للدولة السلجوقيّة ؛ ومن هذه الإمارةِ العُثمانيَّةِ الصغيرةِ وعشيرتها التركمانيّةِ الفتيَّةِ تنشأُ دولةُ الأتراكِ العُثمانيين الاسلاميّةُ ، التي يُوالي سلاطينُها الزَّحْفَ على القسطنطينيّةِ وحصارِها ، وعلى يد واحدٍ من أولئكَ السلاطينِ الأَبْطالِ ، وهو السلطان محمدٌ الفاتحُ ، يتحقَّقُ حُلُمُ الإسلامِ الكبيرُ في فتحِ العاصمةِ البيزنطيّةِ المنيعَةِ ، ويتمُّ القضاءُ نهائياً وإلى الأبد على دولة الرومِ الشرقيّة ، وتَجدُ حكايتُنا الطويلةُ بذلك خاتمَتَها العظيمةَ ، بعد أَنِ استمرَّتْ فصولُها الحمراءُ أكثرَ من ثمانيةِ قرون !

ونُريدُ اليومَ أنْ نرويَ للقارئ العربيّ فصولَ هذه الحكاية، من جذورها إلى خاتمتها: فنمهِّدُ بعرضٍ موجزٍ لسلسلة المعارك البريَّةِ والبحريَّةِ التي خاضَها العربُ والمسلمون عند أسوارِ القسطنطينيةِ الحصينةِ خلالَ القرون. حتى ننتهيَ إلى تفصيل الخاتمةِ البطوليَّةِ الرائعةِ التي كان النبيُّ العربيُّ قد بشَّرَ المسلمين بها «لتَفتَحُنَّ القسطنطينيةَ فَلَنِعْمَ الأميرُ أميرُها، ولَنِعْمَ الجيشُ ذلك الجيشُ!».



الحصار العربي الأول
في خلافة معاوية

كان فتحُ القسطنطينيةِ هدفاً من أهدافِ الخلافةِ الاسلاميةِ بعد وفاة النبيِّ عليه السلامُ، وقد قام الخلفاءُ في مختلف العصورِ بعدَّةِ مُحاولاتٍ لحصارِ العاصمةِ البيزنطية واحتلالها، وهم يروون الأحاديثَ المنسوبةَ إلى النبيِّ في حض المسلمين على تحقيق ذلك الهدفِ الكبيرِ، وبعضُ تلكَ الأحاديثِ يؤكِّدُ الفتحَ، ويجعلُ منهُ بشرى للجيش الإسلامي الفاتحِ، ولقائدِهِ المظفَّرِ: «لَتفتحُنَّ القسطنطينية، فَلَنِعم الأميرُ أميرُها، ولنعم الجيشُ ذلك الجيش».

ومهما يكن مبلغُ هذه الأحاديثِ من الصّحةِ فمغزاها يدلُ على أنّ فتحَ القسطنطينية كان حُلُماً من أحلام العربِ الفاتحين منذ شقَّ لهم الإسلامُ طريقَ الجهاد لنشْرِ كلمةِ اللهِ، ولم يمض ربعُ قرنٍ على وفاة النبي حتى كان العربُ قد هزموا الجيوشَ الرومية، وانتزعوا الشامَ ومصرَ وافريقيةَ من الأمبرطورية البيزنطية، ثم نفذوا إلى هضاب آسية الصُّغرىٰ، فاجتاحوا الولاياتِ الروميَّةَ الجنوبيةَ، واقتربوا من أسوارِ القسطنطينية، وفي عام ٣٢ هـ/٦٥٣ م جرت أُولى المحاولاتِ العربيةِ لفتح العاصمةِ الرومية في خلافةِ عثمانَ بنِ عفانَ، قام بها والي الشام معاويةُ بنُ أبي سفيانَ، حيث سار على رأس جيشٍ كبيرٍ، مُخْترِقاً آسية الصغرىٰ حتى بلغ ضِفَافَ البسفور، ويبدو أنّ معاويةَ كان يترقَّبُ وصولَ الأسطولِ العربيِّ لِيُعينَ

جيشَهُ على حِصَارِ القسطنطينية وفتحِها، لأنَّ بعضَ المصادرِ البيزنطية تذكر أنَّ أسطولاً عربياً بقيادةِ أميرِ البحرِ بُسر بنِ أرطاةَ اتجه في الوقت نفسِهِ من ميناء طرابلس صوب القسطنطينية، فتصدَّى له الأسطولُ البيزنطي أمام جبلِ فينيقية (فينكس) واشتبك معه في معركةٍ بحريةٍ ضارية أسفرتْ عن هزيمةِ البيزنطيين وهلاكِ قُرابة عشرين ألفاً منهم، وأصابَ الأسطولَ العربيَّ بعضُ الخسائرِ، فلم يتمكَّنْ من متابعةِ الطريقِ إلى القسطنطينية، وارتدَّ إلى قواعدِهِ في طرابلس، وأخفقَتْ أولى المحاولاتِ العربيةِ لفتحِ العاصمة البيزنطية.

غيرَ أنَّ معاويةَ بنَ أبي سفيانَ ظَلَّ يُوالي المحاولاتِ بعد ذلك لتحقيقِ الهدفِ الكبيرِ، وعندما صارت مقاليدُ الخلافةِ الإسلامية إليه، وقامتِ

الدولةُ الأموية بدمشقَ، وَجَّهَ عام ٤٤ هـ حملةً بقيادة عبد الرحمنِ بنِ خالدِ بنِ الوليدِ، فاخترق بها هضابَ الأناضول حتى وصلَ إلى برجان (برجاموس) على مَقْرُبَةٍ من القسطنطينية، وسارَ أميرُ البحرِ بسر بنُ أرطاةَ بأسطولِهِ حتى مياهِ بحرِ المرمرة، ولكنَّ الشتاءَ داهم المسلمين قبل أنْ يتمكَّنُوا من حِصَارِ العاصمةِ البيزنطية، فقضوا أشهرَهُ الباردةَ في الأناضول، واكتفوا بشنِّ غاراتٍ محليَّةٍ قريبة، ولم يتقدَّموا لحصار القسطنطينية، وأخفقتْ هذه المحاولةُ الثانيةُ بدورها أيضاً.

ولم ييأَسْ معاويةُ، فراح يتهيأ لمحاولةٍ ثالثةٍ، مُستفيداً من التجربتين الماضيتين، ومضى يُعِدُّ العدَّةَ، ويحشدُ أعظمَ القُوَّاتِ المُحاربَةِ، ويجهِّزُ أسطولاً عربياً ضخماً في موانىء مصرَ والشامِ

للمشاركة في الحملة الكبيرةِ، وفي عام ٤٨ هـ أمر طليعةَ قُوَّاتِهِ بالسير، بقيادة فضالةَ بن عبيدٍ الأنصاريِّ، فاجتازتِ الأناضولَ، وراحتْ تفتَتِحُ الحُصُونَ الرومية، حتى بلغت خلقيدونة، وفي العام التالي ٤٩ هـ سيَّرَ معاويةُ جيشاً كثيفاً إلى بلادِ الروم، بقيادة سفيانَ بنِ عوفٍ الأزديِّ، وأمر معاويةُ ابنَهُ أنْ يُرافقَ الجيشَ العربيَّ الغازي، فتثاقلَ يزيدُ وتمارضَ، فأمسك أبوه عنه، ثم بلغَهُ عنه استخفافُهُ بما أصاب الغُزاةَ في بداية حملتِهم من حُمّىٰ ومرضٍ وجوع، فأصرّ عليه أنْ يلحقَ بالجيش، لِيُصيبَهُ ما أصابَ المسلمين، وأضاف إليه جموعاً كثيرة، فيها عَدَدٌ من الصَّحابَةِ من أمثالِ عبدِالله بنِ عباس، وعبدِالله ِعمرَ، وعبدِالله ِبنِ الزبيرِ، وأبي أيوبَ الأَنصاريِّ، وعددٌ من الفتيانِ العربِ

الشجعان، من أمثال عبدِ العزيزِ بنِ زرارةَ الكلابيِّ وغيرِهِ، وتحركَّتِ الجموعُ حتى لحقت بجيشِ سفيانَ ابنِ عوفٍ، وسارَ الجيشُ الكبيرُ بعد ذلك مُوغلاً في بلاد الروم حتى وصل إلى مضائقِ القسطنطينية، وكان الأسطولُ العربيُّ بقيادة بسر بن أرطاةَ قد اخترق في الوقتِ نفسِهِ مضيقَ هيليس (الدردنيل) دون مُقاومةٍ، وأعان جيشَ سفيانَ علىٰ العبور إلى الشاطىء الأوروبيِّ، على بُعد أميالٍ قليلةٍ من العاصمةِ الرومية، وهكذا بدأ الحِصَارُ العربي الأولُ للقسطنطينية في أوائلِ عام (٥٠) هـ/(٦٧٠) م لِتشهدَ أسوارُها أعظمَ معركة برية ــ بحرية، يخوضُها المسلمون حتى ذلك التاريخ، وكانت أخبارُ الحملةِ وتجهيزاتُها الكبيرةُ قد بلغَتِ الأمبرطورَ البيزنطيَّ قسطنطين الرابعَ، فاستعدّ لملاقاتها بكل ما يستطيعُ

من وسائلِ الدفاعِ، ومن بينها سلاحٌ جديد فتّاكٌ، يتمثل في النارِ اليونانية التي سيكونُ لها أثرٌ كبيرٌ في تدمير الأساطيلِ المعادية التي تُحاصِرُ القسطنطينية وتقترِبُ من أسوارِها، والحقُّ أنّ المسلمين لم يُحسِنوا في ذلك الوقتِ تقديرَ قُوَّةِ عدوِّهم، ولم يحسبوا حساباً لما تتمتعُ به العاصمةُ البيزنطية من موقعٍ دفاعيٍّ ممتازٍ فريدٍ في حصانتِهِ ومنعته، وقد هالهم صمودُ الروم واستبسالُهم في الدفاع عن عاصمتهم، والذود عن دينهم وحضارتهم.

وبدأ العربُ المعركةَ بِمُحاصَرَةِ القسطنطينية وتطويقها من البرِّ والبحرِ، بصفوفٍ كثيفةٍ من السفن العربية والجندِ، وراحوا يوالون هجماتِهم على المدينة، من واجهتِها الشرقية حتى القرنِ الذهبيِّ، خلال عدَّةِ أيامٍ، من الفجر إلى الليل، دون أنْ

يتمكَّنوا من الاقتراب من الأسوار، لأنَّ قذائفَ النارِ اليونانية كانت تنهالُ على سفنهم فتُدمِّرُها تدميراً، وتتصاعد ألسنةُ اللهيبِ والدخان منها، مُحْدِثَةً انفجاراتٍ عظيمةً، و يَنْبثقُ عنها نارٌ حاميةٌ مضطرمة سريعةٌ، لا تنطفىءُ عند ملامسةِ الماء، بل يشتدُّ اضطرامُها ويحتدم، ولا يُخمِدُ أوارَها سوى الرملِ والخلِّ، ولم يكنِ العربُ المهاجمون يعرفون هذا السلاحَ الجديد، فراعهم فتكُهُ، وأوقع في صفوفِهِمُ الخلل والاضطراب، وابتعدوا عن الأسوار لِيتفادوا القذائفَ المُشْتعلَةَ التي تُطلقُ عليهم منها، وأخفقَتِ الهجماتُ المتواليةُ أمام فتك النارِ اليونانية بالمحاصرين العربِ وسفنِهم وعتادِهم، حتى أصاب المسلمين الإعياءُ بعد أشهرٍ من الحصار والمعاركِ اليوميَّةِ وما يتخلَّلُها من هجمات عقيمة، امتدَّتْ طوالَ الربيع

والصيف، فلمّا أقبل الشتاءُ ارتدّ العربُ عن العاصمة المُحاصرةِ إلى جزيرة كيزكوس، على بعد ثمانين ميلاً من القسطنطينية، حيث أقاموا مُعسكَرَهُم، وقضوا أشهرَ الشتاءِ، فلمّا انصرمَتْ عاوَدوا حِصَارَ العاصمةِ من جديد، واستمروا على معاودة حصارهم لها لمدّةِ سبعةِ أعوامٍ مُتواليةٍ؛ يرتدون إلى معسكرِهم في الجزيرة شتاءً، ويعاودون تطويقَ القسطنطينية صيفاً، حتى استنزف الحِصارُ العقيمُ قواهم، وعظُمَتْ خسائرُهُم في الرجال والأعتدةِ والسفنِ، وأنهك المرضُ طاقتَهُم، وأودى الإخفاقُ المتوالي بحماسةِ صدورهم، وفرض عليهم الانسحاب والعودة، وقد فَقَدَ الجيشُ العربيُّ خلال تلك المعاركِ زُهاء ثلاثين ألفاً من رجالِهِ، واستُشْهِدَ عدد من كبار قادتِهِ، ومنهمُ الصحابيُّ الجليلُ أبو أيوب الأنصاريُّ، الذي

قُتِل عند أسوارِ القسطنطينية في الهجوم الأول أو الثاني (عام ٥١ أو ٥٢ هـ)، ودُفِنَ حيثُ لقيَ الشهادةَ، بقرب الأسوارِ، وأغرقَتِ العواصفُ عدداً من سفن الأسطولِ العربيِّ في طريق عودتِهِ الحزينة، وهكذا انتهتْ جهودُ معاويةَ وتضحياتُ الجيشِ العربي في حصاره للقسطنطينية بالفشلِ والإخفاقِ، وغدا الفصلُ الأول من حكايتنا الطويلة قاتماً، يُثيرُ في النفس العربيةِ أشجانَها، للخاتمة المأسوية التي انتهى بها الحصارُ العربيُّ الأول للعاصمة البيزنطية.

الحصار الثاني في خلافة سليمان بن عبد الملك

بعد وفاةِ معاوية غمر الخلافةَ الأمويَّةَ سيلٌ من الضِيقِ والاضطرابات الداخليةِ، حتى تمكّن عبدُ الملكِ بنُ مروانَ أخيراً من التغلّب عليها والقضاء على مُنافسيه، ولم ينقطعْ خلالَ ذلك جِهادُ المسلمين في بلاد الروم، فقد كانوا يُوالون غزواتِهم لها في كل عامٍ، وكانت هذه الغزواتُ مدرسةً حربيَّةً لعرب الشامِ والجزيرةِ، لم ينقطعْ تدرُّبُهُم على الحرب بفضلِها، وفي عهد الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ الذي صارت

إليه مقاليدُ الخلافةِ الأمويةِ بعد أبيه عام ٨٦ هـ نشطَتْ حركةُ الجهادِ، واحتلَّ المسلمون ثَغْرَطوانة بعد حصارٍ طويلٍ، وبدأ الوليدُ الإعدادَ لحملةٍ كبيرةٍ على القسطنطينية، في حين أنّ جيوشَهُ الظافرةَ كانتْ قد أتمَّتْ فتحَ اسبانيا، وفي هذا دليلٌ على أنّ حُلُمَ الأمويين بالوصول إلى العاصمة البيزنطية واحتلالها لم تَقْضِ عليهِ خيبتُهُمْ المُرَّةُ في حصارِهِمُ الأولِ لها، وأنهم سائرون إلى هدفهم في تطويقِ الرومِ والفرنجةِ من المشرقِ والمغربِ.

ولكنّ الوليدَ لم يستطعْ أن يُنجزَ إعدادَهُ الكبيرَ لحصار القسطنطينية خلال السنواتِ العشْرِ من خلافتِهِ التي تحقَّقَ فيها عددٌ من الفتوحاتِ العربيةِ الكبيرةِ، فتابع أخوه سليمانُ بنُ عبدِالملكِ بعد وفاته عام ٩٦ هـ طريقَهُ، وكان سليمانُ يطمحُ أنْ يتمَّ

فتحُ القسطنطينية على يَديه، ويُروى أنّ بعضَ الفقهاء حدَّثَهُ بأنَّ الذي يفتحُ العاصمةَ الرومية اسمُه اسمُ نبيٍّ، ولم يكن في خلفاء بني أميةَ مَنْ يتحقَّق ذلك في اسمه غير سليمان، فنشطتْ نفسُهُ لذلك، وكانتِ الخلافةُ الأموية في عهده قد بلغتْ أوجَ مجدِها الحربي، ووصلت إلى ذروة قوتها وبأسِها، في حين أنّ الأمبراطوريةَ البيزنطية كانت حينذاك تنحْدِرُ إلى الانحلالِ والتدهورِ والفوضى، في فترة من أبشعِ فترات تاريخِها، لِتكالُبِ الطامعين الطامحين وتصارُعِهم على الحُكْمِ واغتصابِهِ، واشتداد الخطرِ على الدولة من الشّمالِ والجنوبِ؛ ففي الشمال اقتحم البلغارُ والسلافُ (الصقالبة) أقاليمَ الأمبراطورية الشمالية، وأشرفوا على أسوارِ القسطنطينية، وفي الجنوب تتوالى غاراتُ الجيوشِ

الأموية وغزواتُها المتوغِّلة في أرضِ الروم، أمّا العاصمةُ البيزنطية نفسُها فكانت مسرحاً للثورةِ والحرب الأهليةِ بين الطامحين الغاصبين، حتى تعاقب على عرشِها ثلاثةٌ من الأباطرة في خمسة أعوامٍ، اثنان منهم لا ينتسبان إلى أية أسرة وهما: أنطاسيوس الثاني (٧١٣-٧١٦م) وتيودوسيوس الثالث (٧١٦-٧١٧م) وكلٌّ منهما مُغْتَصِبٌ للعرشِ في فترة من الاضطراب والفوضى، والثالث: ليو الثالث (واسمه في المصادر العربية: ليون) رأسُ الأسرةِ الايزورية الذي انتزع العرشَ أوائل عام ٧١٧م (أواخر عام ٩٨ هـ) بعد أنْ لعب دوراً مشبوهاً في تشجيع الأمويين على الزَّحْفِ على القسطنطينية وحصارِها، على النحو الذي سنفصِّلُ الكلامَ عليه بعد قليل.

والحقُّ أن الأمويين بعد نجاحِ عبدِ الملكِ بنِ

مروانَ في إعادة الاستقرارِ إلى خلافتِهم، بدؤوا الإعدادَ للحملةِ الكبرى على العاصمة البيزنطية، وعكفوا على التأهُّبِ لها، وتابع سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ جهودَ أخيه الوليد، فحشد قوات ٍعظيمةً في البر والبحر، وجهَّزَها بعددٍ من الأسلحة والذخائر وآلات الحصار، لحرب الشتاء ِوالصيفِ، وزوَّدَها بمقاديرَ لا تُحصى من المؤن، وأسْلَمَ قيادتَها العامَّةَ لأخيه مسلمةَ بنِ عبدِالملكِ، وصحب سليمانُ الحملةَ بنفسِهِ إلى معسكر دابق في شمالِ الشام، على بُعْدِ أربعةِ فراسخَ من حلبَ، وهو قاعدة ٌاتخذها الأمويون لتدبير أمورِ الحرب الكبيرةِ الموجَّهةِ إلى القسطنطينية، ومن معسكر دابق خرجتْ جموعُ الحملةِ متدفقةً نحو الشَّمال، صوب الدربِ المؤدي إلى العاصمة البيزنطية، وقد ودَّعها الخليفةُ الأموي بنفسه، وأوصى

أخاه ألاّ يبرحَ مُحاصِراً للقسطنطينية حتى يفتحَها اللهُ عليه، أو يأتيه أمرٌ منه، وكان سليمانُ شديدَ الحماسةِ للفتح، وقد أعطى اللهَ عهداً ألاّ ينصرِفَ عن المعسكر في دابق، حتى يتمكَّنَ جيشُ مسلمةَ من دخول القسطنطينية!

وسار مسلمةُ بِقُوَّاتِهِ العظيمة، مُخْتَرِقاً هضابَ الأناضول، في أوائل عام ٩٨ هـ/٧١٦ م، وكان في الحمْلة عدد من وجوه أهلِ الشام وأعيانِهم من أمثال: خالدِ بنِ معدانَ، ومجاهدِ بنِ جبر، وعبدِاللهِ بنِ أبي زكريا الخزاعي، كما كان فيها عددٌ من شباب بني أمية، وفيهم داودُ ثاني أولادِ الخليفةِ سليمانَ، وافتتحتِ الحملةُ في طريقها عدداً من مدن العدوِّ وحُصُونِهِ، حتى وصلت إلى أسوار عَمُّوريَّةَ، قاعدةِ الأناضول، فحاصرتْها، وكان قائدُ حاميتها البطريق

ليون، وكان واحداً من قادة الجيشِ البيزنطي المغامرين والطامحين إلى اغتصاب عرشِ الأمبراطورية، فاتَّصل بمسلمةَ، وأبدىٰ استعدادَهُ لتقديم العونِ إليه، وهنا تختلفُ المصادرُ في تحديد الخطَّةِ والشروطِ التي تمَّ الاتفاقُ بين مسلمةَ وليون عليها، والتي استطاعَ القائدُ الروميُّ أنْ يخدعَ الأمويَّ في بعض مراحلِها خديعةً كبرى، أدَّتْ بالحملة كلِّها إلى الاخفاق، ودلَّتْ على سذاجَةِ مسلمةَ بنِ عبدالملكِ، وجعلَتِ المؤرخين العربَ ينهالون عليه لوماً يقطر بالمرارة!

تقولُ المصادرُ العربية (انظر الطبري وابن الأثير) إنّ القائدَ الروميَّ ليون تعهَّدَ لمسلمةَ بأنْ يرشدَهُ ويعاونَهُ في فتحِ القسطنطينية، وأنّه قطع من قبلُ مثل هذا العهدِ لسليمانَ بنِ عبدِالملك، وأغراه

بإعدادِ الحملة، وأقنعه بسهولة تحقيقِ هدفِها.

أمّا الروايةُ البيزنطية (انظر الطبري وابن الأثير) فتعترفُ بأنّ ليون عاون العربَ بالإرشادِ والنصحِ، ولكنّه لم يقصدْ قطُّ أنْ يُسلِّمَ القسطنطينية إليهم، وإنّما أراد أنْ يمهِّدَ الطريقَ للوثوب على العرش، بإضعافِ قُوَّاتِ الدولة، وشَغْلِها عنه بردِّ الفاتحين! وقد تمكَّنَ القائدُ الرومي الجريء المغامرُ من أنْ ينتهزَ الفرصةَ لنفسِهِ، فنادى بنفسه أمبرطوراً في عُمُّوريَّةَ، ثم سار على رأس قُوَّاتِهِ منها صوبَ القسطنطينية، وهزم الجيشَ الأمبراطوريَّ الذي بعثه تيودوسيوس الثالثُ لقتالِهِ، فتخلَّى هذا عن عرشه، واعتزلَ في بعض الأديرةِ، ودخل ليون العاصمةَ بجيشِهِ الظافر، وتُوِّجَ امبراطوراً باسم ليو الثالث في مارس ٧١٧ م، وأصبحَ يقودُ الدفاعَ عن القسطنطينية أمامَ

الحملةِ الأموية التي تتهيأ لمحاصرتها.

وكان مسلمةُ حينذاك قد أشرف على خليج القسطنطينية بجموعِهِ الزاخرة، وقد وصل الأسطولُ العربيُّ الكبير بقيادةِ أميرِ البحر سليمانَ بنِ مُعاذٍ الأنطاكي، وقد بلغ عدَدُ سفنِهِ ـ حسبَ الرواية البيزنطية ـ ألفاً وثمانمائة سفينة كبيرة للحرب والنقل، وهو أعظمُ أسطولٍ استطاع العربُ أنْ يحشدوه إلى ذلك الوقت، ولعلَّه ـ كما يقول الأستاذ محمد عبدالله عنان ـ أعظمُ قوة بحرية استطاعتْ أنْ تحشدَها دولةٌ اسلامية، وعلى هذا تُعَدُّ حملةُ مسلمةَ من أكبر القُوىٰ التي جرَّدها الإسلامُ على النصرانية، ويُقدِّرُ ابنُ العبري جيشَ مسلمة بمائة وعشرين ألفاً من المحاربين، وتقدِّرُ الروايةُ البيزنطية عددهُم ثمانين ألفاً، وتقدِّرُ ما اجتمع للعرب تحت أسوار

القسطنطينية في البرِّ والبحرِ بمائة وثمانين ألفاً.

وعَبَرَ مسلمةُ بجيوشِهِ الزاحفة على سفن الأسطول إلى ضفة الدردنيل (هيليس) الأوروبية، وتابع السيرَ على ضِفافِ بحر المرمرة حتى دنا من العاصمةِ البيزنطية، وطوَّقَها بِقُوَّاتِهِ الكثيفةِ من البحرِ والبرِّ، وسدَّدَ إلى أسوارِها المجانيق الضخمةَ، وقد أراد المسلمون في بداية الحِصارِ أنْ يستفيدوا من عاملِ الهجوم المفاجىء، في اقتحام المدينةِ، ولكنَّهم أخفقوا بعدَ عدَّةِ مُحاولاتٍ، بذلوا فيها كثيراً من التضحيات، وقد ردَّتْهم مناعةُ الأسوار، ووفرةُ آلاتِ الدفاعِ من قاذفات النارِ اليونانية والأحجارِ، ومهارةُ المهندسين البيزنطيين، و يقظَةُ المدافعين عن المدينة، فعَدَلَ مسلمةُ حينذاك عن مُوالاة الهجوم والاقترابِ من الأسوار، وعدَّل على أخذِ المدينةِ بالحصار الشديدِ

المُستمِرِّ، فأمر بإحكامِ تطويقها، والعملِ على قطع جميعِ صلاتِها بالبرِّ، بإحراق المروجِ والمزارع القريبة وإتلافها، وحجزِ جميع الأقْواتِ التي يمكنُ أنْ تتسرَّبَ إلى المدينة المحصورةِ، وقام الأسطولُ العربي بقطع علائقِ المدينة من جهة البحر، وشدَّدَ الحصارَ البحريَّ عليها، ولكنّ المدافعين من وراء الأسوارِ بقيادةِ الأمبراطورِ الجديدِ ليو الثالث كانوا في غاية الأهبَةِ والحذَرِ، وكانوا يُمطِرُون المسلمين بسيلٍ من النار الحامِيَةِ، و يضطرون أسطولَهُم إلى الابتعادِ عن الأسوار، إلى مدًى لا تبلغُهُ القذائفُ النارية المُحرقةُ.

بدأ الحصارُ العربي الثاني للقسطنطينية في بداية العامِ الهجريِّ ٩٩ (الموافق لمنتصف آب ٧١٧م) أيْ قبيل حلولِ الخريف والشتاء، وأعدَّ مسلمةُ الجيشَ

لحصارٍ صارمٍ طويلِ الأمد، وجمعَ حوله المؤنَ في كُتلٍ كأمثال الجبال، وأوصى المسلمين ألاّ يأكلوا منها، وأنْ يزرعوا الأرضَ ويأكلوا من زرعها ومما يُصيبونه خلالَ غاراتِهم على النواحي القريبةِ، ففعلوا، وأمر مسلمةُ بصُنْعِ بيوتٍ من الخشب ليشتو الجندُ فيها، وبدأ الحصارُ الشديدُ يُرهقُ المدينةَ المحصورة، ويدفعُ ليو الثالثَ إلى مفاوضةِ مسلمةَ، وكان الأميرُ الأموي القائدُ برغم شجاعتِهِ وجرأته قليلَ الخبرةِ بفنون الحربِ، سريعَ الأغترار إلى حدّ السذاجةِ، ولم يكن بين كبار قوادِهِ ومعاونيه رجالٌ من الطراز الأولِ، يوجِّهونه ويسدّدون خطاه، ويضعون دهاءهَم وخبرتَهُم في خدمته، فسهل على ليو الثالثِ أنْ يتغلَّبَ عليه بمكرِهِ وذكائه وسعةِ حيلتِهِ وتجاربه، فكان يُصانِعُهُ ويبذلُ له الوعودَ بتسليم العاصمةِ

وخزائنِ الروم وذخائرهم فيها، وأنْ يتولّى المُلكَ باسمِ الخليفةِ، و يدفعَ له الجزيةَ التي يرضاها، وكان مسلمةُ يصدّقُ هذه الوعودَ، و يسمحُ بتخفيفِ وطأةِ الحصار على المدينة، فتتسرَّبُ إليها المؤنُ، في انتظار وفاءِ ليو الثالثِ بعهودِهِ التي كان يسخو ببذلها لمسلمةَ، وهو يُضمِرُ النفاقَ والغَدْرَ، و يرجو من وراء وعودِهِ اكتسابَ الوقتِ، واستنزافَ قوى الجيشِ العربيِ وطاقتِهِ على الصَّبْرِ دون جدوى، في مواجهةِ الأسوارِ المنيعةِ، والشتاءِ القارِسِ بأهوالِهِ وثُلوجِهِ!

وتروي المصادرُ العربية خطَّةَ الخديعةِ التي اقترحها ليو الثالثُ وسقط في شباكِهَا مسلمةُ، بأكثرَ من صورةٍ: فقد نصح بإحراق المؤنِ، لِيعلمَ المدافعون وراءَ الأسوارِ أنّ المسلمين قد عزموا على الصدقِ في القِتالِ، وعَدَمِ المطاولةِ في الحصار، فييأسوا من

دفاعهم، ويستسلموا لمحاصريهم! وقَبِلَ مسلمةُ النصيحةَ الماكِرةَ بكلِّ سذاجةٍ واغترارٍ، وأحرقَ المؤنَ، فقوي الرومُ، ولم يَجِدِ المسلمون ما يأكلون، فأشرفوا على الهلاكِ!!

وصورة أخرى لخطَّةِ الخديعةِ في المصادر العربيةِ تقول: اقترح ليو الثالثُ أنْ يسمحَ لسكان المدينةِ المحصورة بأنْ يأخذوا من مؤنِ الجيشِ العربيِّ ما يكفي لطعامهم يوماً واحداً، لِيصدِّقوا أنّ المسلمين عازمون على تسليم كلِّ شيءٍ لِصَنِيعتِهِم ليو الثالثِ، وأنّهم في أمانٍ من السبي والطردِ من ديارهم، ليوافقوا على تسليمِ المدينةِ للمسلمين، وقَبِلَ مسلمةُ النصيحةَ، فجاء ليو الماكرُ بالسفن والرجالِ، ونقل الطعامَ من الحظائر، ولم يترك فيها شيئاً يُذكرُ، وأسفر الصباحُ بعد تلك الليلةِ، لِيجدَ القائدُ الأموي نفسَهُ

وقد خُدِعَ خديعةً لو كانت لامرأةٍ لَعِيبتْ بها، كما يقول المؤرخون العرب، بأسف ومرارةٍ قويةٍ!

ومن حقِّ الباحثِ اليوم أنْ يشكَّ في صحةِ أمثالِ هذه الروايات، على الصورة التي تُروى بها، ولكنّ النهايةَ الحزينة التي انتهى الحصارُ الكبيرُ إليها تحيِّرُ الباحث عن حقيقة ما حدث، حتى تبخّرتْ تلك الجبالُ من المؤن والأطعمةِ المحفوظة، وعمَّ الجيشَ العظيمَ القحطُ والمجاعةُ، وصار رجالُهُ يأكلون «الدواب والجلودَ وأصولَ الشجرِ والورقَ وكلَّ شيءٍ غير التراب» كما يقول الطبريُّ وابنُ الأثير!

وحقيقةُ ما حدث أنّ المنيةَ فاجأتِ الخليفةَ الأموي سليمانَ بنَ عبدِالملكِ، وهو في دابق، عام ٩٩ هـ، بعد عدة أسابيع من بدءِ الحصارِ الكبيرِ، قبل أنْ يستطيعَ إمدادَ أخيه مسلمةَ، ثم دخلَ الشتاءُ

القارسُ فغطى بالثلج والجليد كلَّ شيءٍ حولَ الجيشِ العربي المُرابِطِ أمامَ الأسوارِ، وقضى البردُ الشديدُ على عددٍ كبيرٍ من الجند، وعلى معظم الخيلِ والدوابِ، وقلَّ القوتُ، ومات أميرُ البحرِ سليمانُ الأنطاكي، ودبّ الخللُ إلى الأسطولِ بعد إحراقِ عددٍ من سفنه، ولم تُجْدِ الأساطيلُ التي وصلتْ مع بدايةِ الربيعِ تحمِلُ الأقواتَ إلى جيشِ مسلمةَ من الاسكندرية وافريقية، فقد تدنَّتِ معنوياتُ رجالِهِ، وأصبح ليو الثالثُ يهاجمُهُم بقواربه المزوَّدةِ بقاذفاتِ النارِ اليونانية، وينقضُّ بها على سفنِ الأسطولِ العربي، فيحرق بعضَها، ويأسر بعضَها، ويلوذُ ما تبقَّى بالشواطىء البعيدةِ، وتوالتْ على الجيشِ البريِّ أروعُ الشدائدِ والأهوالِ، وأدركَ مسلمةُ عقمَ محاولاتِهِ لانقاذ الحملةِ الكبرى من

مصيرها الحزينِ، عندما وصلت أوامرُ الخليفةِ الأموي الجديد عمرَ بنِ عبدِ العزيز إليه برفع الحصارِ عن القسطنطينية والعَوْدَةِ إلى الشَّامِ، فقرَّرَ مسلمةُ أنْ يُبادِرَ بالانسحاب، وتمَّ نقلُ بقيةِ جيشه إلى الشاطىء الآسيوي، على ما تبقى من سفن الأسطولِ العربيِّ وقواربِهِ، وكان رفعُ الحصارِ في ١٢ من المحرم عام ١٠٠ هـ (الموافق لمنتصف شهر آب ٧١٨) بعد عامٍ كاملٍ، تحطَّمَتْ خلالَهُ أمامَ أسوارِ القسطنطينية المنيعة أَضْخَمُ وأعظم قُوَّةٍ عربيةٍ تمكَّنَ الأمويون من حشدها، لتحقيق حُلُمِ الاسلامِ في فتحِ العاصِمَةِ البيزنطية، أمّا بقايا سفنِ الأسطول العربيِّ الكبيرِ فقد كانتِ العواصفُ تتربَّصُ لها في العودة، كما تربَّصَ لها سكّانُ الجزرِ اليونانيون في بحر الأرخبيل، فانقضُّوا على وحداتها، ولم يَعُدْ من الأسطول العظيم

إلى قواعدِهِ في ثُغُورِ الشَّامِ غيرُ عددٍ من السفن!

وهكذا أخفقَتِ الجهودُ الأموية نهائياً في فتحِ القسطنطينية، وَختمَتِ المأساةُ الفصلَ الثاني من حكايتنا الطويلةِ بخاتمة قاتمةٍ حزينة، لعجزِ العربِ في حصارِهِمُ الثاني للعاصمة البيزنطية عن فتحها وقهرها.

العباسيون يصلون إلى ضفاف البسفور

كان لاخفاقِ الأمويين في حصارِهِمُ الثاني ـوالأخيرـ للعاصمة البيزنطية أثرٌ حاسِمٌ، قضى على أملهم بمعاودة الكرَّةِ عليها، ويحاولُ الباحثون تعليلَ إخفاقِهِم فيذكرون عدَّةَ عوامل: أهمُّها الموقعُ الدفاعيُّ الممتاز للمدينة، والأسوارُ الشاهقةُ الحصينة التي تحميها، وبراعةُ البيزنطيين في الدفاع عن مدنهم وحُصونِهِم، وتفوقُّهم في وسائل الدفاعِ وانفرادُهُم بالنار اليونانية واستعمال قذائفها، وحرصُ الأباطرةِ على توفير أكبر نصيبٍ من الآلات والأسلحةِ للمدافعين عن المدينة، لصَدِّ الغُزاةِ والفاتحين عنها،

هذا كلُّهُ بالإضافة إلى حَداثَةِ عَهْدِ العربِ بالمعاركِ البحرِيَّةِ وقسوةِ الاقليم والمناخِ غير المعتاد، ومهما يكن فقدِ استعصَتِ القسطنطينيةُ على الأمويين وغيرهم من الغُزاة والفاتحين، خِلالَ عَشَرَةِ قرونٍ، وعندما استولى العباسيون على الخلافة الإسلامِيَّةِ لم يقم أحدٌ من خلفائِهِم بمحاولةٍ جادَّةٍ لحصار العاصمةِ البيزنطية وفتحِها، ويرى الباحثون أنّ الحروبَ بين العربِ والبيزنطيين اتخذَتْ في ظلِّ الخلافةِ العبَّاسيَّةِ وجهةً جديدةً، فأصبحت أشبه بالغارات منها بالحروب المُنَظَّمَةِ، غرضُها الهدمُ والتدمير والانتقام، خلافاً للأمويين الذين كانتْ لهم سياسةٌ مرسومَةٌ لمحاربة الروم، ابتغاءَ احتلالِ القسطنطينيةِ، وسببُ ذلك مُناوأةُ أهلِ الشام للعباسيين وولاؤُهم للحُكْمِ الأمويِّ الذي قضى العباسيون عليه، وعَدَمُ اهتمامِ

العباسيين بإنشاء أسطولٍ قويٍّ في البحر الأبيضِ المتوسط يُضارعُ أسطولَ الأمويين، واعتمادُهُم على الجيوش البريَّةِ دون القوات البحرية، ولهذا كلِّهِ كانتِ الجيوشُ العباسية الجرَّارةُ لصدِّ غارات البيزنطيين المتكررة على ثُغُورِ الشَّامِ والجزيرة، وتكتفي بمحاصرة الثُغُورِ الرومية وتدميرِ حُصُونِهَا، ثم تعود إلى قواعدها، وفي خلافة المهديِّ وصلتِ الجيوشُ العباسية بقيادة ابنِهِ هارون الرشيدِ إلى ضفافِ البسفور عام ١٦٥ هـ، وهدَّدَتِ العاصمةَ البيزنطية وأرغمَتِ الملكةَ ايريني ــ كانت وصيةً على ولدها قسطنطين السادسِ ــ على طلب الصُّلْحِ، ودفعِ جزيةٍ سنويةٍ إلى المسلمين، وقد قنع الرشيدُ بهذه النتيجةِ الهزيلةِ، ولم يعبرِ الخليجَ إلى الضفة الأخرى، ولم يُحاصرِ العاصمةَ المقهورة، مما يؤكِّدُ تخلِّي العباسيين

عن الحُلُمِ الإسلامي العظيمِ بفتحِ القسطنطينية، والقضاءِ على الدولة البيزنطية!

في خِلافَةِ المُعْتَصِمِ أتيحتِ الفُرْصَةُ للجيوش العباسية، بعد انتصارِها الساحِقِ على الأمبراطور البيزنطيِّ عام ٢٢٣ هـ، في عمُّوريَّةَ، لِتُتابعَ الزَّحْفَ المظفر على القسطنطينية، بعد انهيارِ المقاومةِ الرومية، وانفتاحِ الطريقِ أمامَ المعتصمِ للاستيلاء على العاصمة البيزنطِيَّةِ، و يؤكِّدُ المؤرخون أنَّ المعتصمَ كان عازماً على غزوها وفتحِهَا، لولا اكتشافُهُ تلك المؤامرةَ التي كانتْ تهدفُ إلى اغتياله، ومبايعةِ ابنِ أخيه العبَّاسِ بنِ المأمونِ بالخلافة إثر ذلك، فآثر العَوْدَةَ إلى العراق، لإحباط المؤامَرَةِ التي يُسْهِمُ فيها عَدَدٌ من كبار قوَّادِ الجيش!

وهكذا ظلَّتِ العاصمةُ البيزنطيةُ وراء أسوارِها

المنيعة، مُسْتعصِيةً على الفاتحين المسلمين، في انتظار الفاتحِ البطلِ الذي يَمْتَشِقُ سيفَ الإسلامِ، و يقودُ جيوشَ المجاهدين، و يقهرُ المدينةَ المُتحدِّيةَ، ويجتاحُ حصونَهَا، و يرفعُ رايةَ التوحيدِ فوق أسوارِها، ويحقِّقُ الحُلُمَ الكبيرَ الذي لم يتحقق على يد الأبطالِ العربِ في ظلِّ الخلافتين الأمويَّةِ والعباسيَّةِ، برغم كلِّ ما بذلوا من دماء، وما قدّموا من عظيم التضحيات.

ولكنّ انتظارَ القسطنطينية لسيف مُحَمَّدٍ الفاتحِ سيطولُ قروناً، حتى تشيخَ الأمبراطوريةُ البيزنطيةُ الفتية، و يدبّ الانحلالُ والوهنُ إلى قواها، ولا تجد عاصمتُها يومذاك بُدّاً من السقوط صريعة بين يدي قاهِرِها الفاتحِ العظيم.

الأتراك العثمانيون ورثة الأمبراطورية البيزنطية

تمزَّقَتِ الخلافةُ العباسيَّةُ إلى دويلات في القرن الرابعِ الهجري، وتكوَّنَتْ في شِمالِيِّ الشَّامِ والجزيرة الفراتية إمارات عربية (حمدانية ومرداسية وعقيلية) ظهر عَجْزُها منذُ منتصفِ القرنِ عن صدِّ الخطرِ البيزنطيِّ المتزايد على ديار الإسلام، حتى اضطرَّ الفاطميون في أواخرِ القَرْنِ إلى الاعتراف للبيزنطيين بأنَّ شماليَّ الشَّامِ (بما في ذلك مُدُنُ حلبَ واللاذقيةِ وأنطاكِيَّةَ) هي مناطقُ نفوذٍ بيزنطية، كما احتلَّ البيزنطيون جزيرتي كريت وقبرص، وأصبحَتِ الثُّغورُ الساحِلِيَّةُ الشاميَّةُ تحت رحمتِهِم.

وفي القرن الخامسِ الهجريِّ، كان البيزنطيون بعدَ قضائهِم على الخَطَرِ البُلْغارِيِّ الذي كان يُهدِّدُهُم من الشّمالِ، يتأهبون لتشديد قبضتِهم في الجنوب، ومُوالاةِ زحْفِهِم على المشرق العربي، عندما جابهَتْهُمُ القُوَّةُ التركيَّةُ الفتيَّةُ التي استطاع الإسلامُ أنْ يحطِّمَ بها أخيراً الأمبراطورِيَّةَ البيزنطية نهائياً وإلى الأبد! فقد زَحَفَ الأتراكُ السلاجِقَةُ على الأناضول، وسحقتْ جيوشُهُم جهازَ الدِّفاعِ البيزنطيِّ، وأسسوا (دولة سلاجقة الروم) وغدا الأناضولُ جزءاً من ديارِ الإسلامِ، وأصبحَتِ الدَّولةُ السلجوقِيَّةُ الرومية (٤٦٧ ــ ٧١٨ هـ) أهمَّ الدولِ الإسلامية في مُواجَهَةِ البيزنطيين في المشرق، وأتيحَ لها أنْ تُسْهِمَ في صدِّ الحملاتِ الصليبيَّةِ التي شنَّها الافرنجُ على المشرق العربي، وعندما تجزَّأتِ الأمبراطوريةُ

السلجوقيَّةُ الرومية بعد قرنين ونصف إلى عَدَدٍ من الدو يلات التركِيَّةِ والأ رمنِيَّةِ، كانتْ إمارةُ (عُثْمانلي) واحدةً من تلك الدو يلاتِ العَشْرِ، بل كانت أكبرَها، بشهادة الرحَّالةِ العربيِّ ابن بطوطة الذي زار بِلادَ الأناضولِ في ذلك الحينِ، و يومذاك لم يَبْقَ للأمبراطوريَّةِ البيزنطية في آسية غيرُ عاصمَتِهَا، وقد تمكَّنَ العثمانيون من توحيد تلك الإماراتِ تحتَ رايتِهِم، وأَنْ يُتَابِعُوا فتوحاتِهِم في أوربة في عهد السُّلْطانِ العثمانيِّ الرابعِ بايزيد، وفي عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م كانتِ الجُيُوشُ العثمانِيَّةُ بقيادتِهِ تحاصِرُ العاصمةَ البيزنطية، وهو أولُ حِصَارٍ عُثمانيٍّ للقسطنطينية، ولكنّ زحفَ المغولِ بقيادة تيمورلنك على حدودِ الدولة العثمانية، بتحرِيْضٍ من الدولِ الأوربِيَّةِ، حال دون مُتابَعَةِ الحِصَارِ،

وكانت هزيمةُ الجيشِ العثماني عام ٨٠٤ هـ/١٤٠٢م في معركةِ أَنْقِرَةَ أمامَ الزَّحف المغولي نَكْسَةً شديدة، بل كادتْ تكون كارِثَةً حقيقية، لو لم يكنِ الافْرَنْجُ في أوربة مشغولين بمُشْكِلاتِهِمُ الداخلية، وكان البيزنطيون في مَعْقِلِهِمُ الأخيرِ أعجز من أنْ يهاجموا العثمانيين و يستغلوا نكبتَهُم، وقد تمكّن العثمانيون من التغلُّبِ على الظروف العصيبة التي أعقبتْ هزيمتَهُم، وأعاد السلطانُ محمدُ الأولُ بن بايزيد بناءَ الدولة من بين الأنقاضِ، في مدى عَشْرِ سنواتٍ، فدلَّلَ بذلك على حيويةِ العثمانيين وقوتِهِمُ الكامنة، واستطاع ابنُهُ مراد الثاني في السنة الثانية من سلطنته (عام ٨٢٥هـ/١٤٢٢م) أنْ يتصدَّى لحصار القسطنطينية، وأن يقضي على الإماراتِ المُستقلَّةِ التي بعثها تيمورلنك بعد مَعْركةِ أَنْقرَةَ، وأنْ يُتابعَ الفتوحاتِ العثمانية في أوربة، وأنْ يصِلَ في

عام ٨٤٣هـ إلى حصار بلغراد، وأنْ ينتصِرَ على الجيوش الصليبيَّةِ الأوروبيَّةِ في معركة وارنة انتصاراً ساحِقاً، وأنْ يسحقَ الجيشَ المجريَّ في موقعة قوصوه عام ٨٥٢هـ سحقاً كاملاً، وقد اشتركَ ابنُ السُّلطانِ مراد الثاني «محمدٌ الفاتح» في هذه المعركةِ، التي بدأ بها العسكريَّةَ الطويلة العامِرَةَ بالبطولات والانتصاراتِ والأمجادِ.

ومحمدٌ الفاتحُ هو السلطانُ العثماني السابعُ، الذي يقضي على الأمبراطوريةِ البيزنطية، باستيلائهِ على القسطنطينية، آخر معاقِلِهَا، بعد معركةِ حصارٍ بطولية، استمرَّتْ سبعةَ أسابيَعَ، قُتِلَ فيها آخرُ الأباطرةِ البيزنطيين، وورث محمدٌ الفاتحُ الدولةَ البيزنطية وعاصمَتَها، وجعل منها عاصمةً اسلاميةً للدولة العثمانية..

القسطنطينية في عهد آخر الأباطرة البيزنطيين

كان قسطنطين باليولوجوس آخر امبراطورٍ بيزنطي جلس على عرش القسطنطينية، بعد وفاةِ أخيه الأمبراطورِ يوحنا الثامنِ، وقد ورثَ تركةً ثَقِيْلَةً، إذ بلغَتِ الدولةُ الرومية الشرقية في عهْدِهِ ذروَةَ انحلالِهَا وتفكّكِهَا وأضحت عاصمَتُهَا في حالة يُرثى لها من التَدَهورِ والفوضى، فهذه المدينةُ ذاتُ الأحجارِ الكبيرة الخالدة هي كلُّ ما تبقَّى من الأمبراطورية الواسِعَةِ العظيمة، بعد أن قُصَّتْ

أَطْرافُهَا من كلِّ طرف، وغدت أَنقاضَ مملكةٍ لا مواردَ تُحملُ إليها، ولا اعتمادَ لها في الدفاع إلاّ على نفسِهَا، وتدنى عَدَدُ سكَّانِها إلى مائةِ ألف ٍأو مائة وخمسين ألفاً، بعد أنْ تجاوز عَدَدُهم في أيام ازدهارِها بضعَ مئاتِ الألوف، وقد خمدت في نفوسِهم الروحُ المعنوية، وغلب عليهم شعورٌ من الاستكانة والاستسلامِ، والايمانِ بالخرافاتِ والأساطير، وتفشَّتْ فيهِمُ النبوءاتُ اليائسَةُ عن قرب سقوطِ المدينةِ في أيدي الغزاة، وكان أباطرتُهُم يوالون الاستغاثَةَ بالأمم النصرانِيَّةِ في الغرب، و يطلبون نجدتَهَا لصدِّ الخطر الداهِمِ عن قوى الحضارةِ البيزنطية، دون جدوى، وقد ظهر أنّ الأمبراطورِيَّةَ البيزنطية تسيرُ مُنْحدِرَةً نحو مصيرِها المحتوم.

وليس من شأننا هنا أنْ نُفِيضَ في تعدادِ

الأسبابِ التي أدَّتْ إلى هذا الاضمحلالِ والانحلالِ، بعد تاريخ حافِلٍ بالقوة والازدهارِ والمجدِ، ويكفي أن نقولَ إنّ لكلّ شيءٍ نهايةً، وقد دفعتِ الأمبراطوريةَ البيزنطيةُ إلى نهايتِها الحزينةِ عدّةُ عوامل أهمُها كثرةُ الحروب التي كانت تستنزِفُ مواردَها، حروبٌ مع الفرس وبرابرةِ أوربا والمسلمين، وقد أنهكَتِ الضرباتُ العربية والإسلامية قواها، وحرمَتْها من الأقاليم التي كانت تمدُّها بالمال والأقواتِ والرِّجالِ، حتى حصرتها أخيراً وراء أسوارِ العاصِمَةِ، وجعلتْها دُوَيْلَةً فقيرَةً تشكو من إفلاس خزينَتِهَا وتستأجِرُ الجنودَ المرتزِقَةَ من مختلف الأمم للدفاع عنها، وقد كان البلاطُ البيزنطيُّ دائماً عشّاً للمكائد والدسائِسِ والمؤامرات، والمغامراتِ التي كان الطامحون من القُوّادِ يقومون بها لاغتصابِ

الحُكْمِ والوصولِ إلى العرش، وكان يشترِكُ فيها الخصيان والنساءُ بدورٍ مشهودٍ، حتى أصبح الاستِقْرارُ في الأمبراطورية أمراً نادراً، وإلى ذلك كانتِ الخلافاتُ الدينيَّةُ تمزِّقُ وحدةَ الشعبِ البيزنطي: فالخلافُ بين الكنيستين الشرقيةِ والغربيةِ كان يُؤَجِّجُ نارَ الحقدِ والعداء بين بيزنطةَ والغربِ، ويجعلُ الغربيين يتثاقلون عن نُصْرَةِ العاصِمَةِ البيزنطية ومدّ يد العونِ والانقاذِ إليها، وكان الخلافُ بين بابا روما وبطريرك القسطنطينية على الرياسة والصَّدارَةِ لا يفتر، وكانا يتبادلان إصْدارَ قراراتِ الحرْمَانِ، كلٌّ على الآخر، وكان الشعبُ البيزنطيُّ في تمزُّقِهِ ينحازُ للبطاركة المتعصبين الذين يذكون نارَ العَداوَةِ والبَغْضَاءِ ضدَّ اللاتين، ويزيدونها ضِراماً، حتى أتيحَ لنصارى الغربِ يوماً

أنْ يوجِّهُوا قُوَّاتِ الحملة الصليبيةِ الرابعةِ إلى القسطنطينية، بدلاً من توْجِيهها إلى المشرِقِ العربيِّ، فاجتاحوا العاصمةَ البيزنطيَّةَ (في بداية القرن الثالثَ عشرَ الميلادي) واستولوا عليها، وارتكبوا ضُرُوبَ الوحشيَّةِ والقَتْلِ والسلب والنهب، وانتهكوا الحُرُماتِ، ودنَّسُوا الكنائسَ واقتحموها بخيولهم، ولم يتورَّعُوا عن اقترافِ الفَوَاحِشِ والمنكراتِ فيها، وقد خلَّفَتْ هذه الحملةُ أشدَّ الكراهِيَةِ في نفوسِ الروم على اللاتين، وكانت من أهم الأسْبابِ في إخفاقِ الجهودِ المتوالية بعد ذلك لترميم العلاقاتِ بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية، وكان البيزنطيون يُصرِّحُون وهم يتميّزون حقداً على اللاتين: «لأنْ نرى في القسطنطينية عمامَةَ الأتراك المسلمين، خيرٌ لنا من أن نرى فيها قُبَّعةَ النصارى

اللاتين!». وقد غدا هذا القَوْلُ شعاراً يُردِّدُهُ البيزنطيون في مجادلاتهم، وهم المشهورون بإضاعَةِ الوقت في جَدَلِهِمُ البيزنطيِّ العقيم، حتى ليقال إنّ الجدلَ بينهم كان مُحْتَدِماً على أشَدِّهِ ـ والأتراكُ على الأبواب! فهل نحن بحاجة بعد هذا للبحث عن العوامل التي ساقتْ بيزنطَةَ وعاصمتَهَا إلى الزوال!

والحقُّ أنْ قسطنطين آخرَ أباطرةِ البيزنطيين لم يكن أسوأ من غيره، بل لعلّه كان منهم، وقد بذل أقصى جُهْدِهِ لانقاذ الأمبراطوريةِ والدفاعِ عن العاصمة، واستغاث بجميعِ ملوكِ الغرب وأمرائِهِ، وأرسل إلى البابا نيقولا الخامسِ يستنصِرُهُ، و يُنذِرُهُ بأنّ المسلمين الأتراكَ لن يقفوا عند حدودِ القسطنطينيةِ إذا سقطت بأيديهم، وأنهم سيزحفون على إيطاليا وروما بعد ذلك، وأعلن له أخيراً

المُوافَقَةَ على توحيدِ الكنيستين بزعامَتِهِ، ولكنّ الشعبَ البيزنطي والرهبانَ كانوا يعارضون، فازدادَ الخِلافُ الدينيُّ حدةً، والأتراكُ الغزاةُ على الأبواب!

ويذكر المؤرخون أنّ قسطنطينَ حاول أنْ يُنقِذَ عرشَهُ بزيجة سياسِيَّةٍ تكفل له عونَ المملكةِ النصرانية التي يختارُ الزَّواجَ من إحدى أميراتِ البيتِ المالك فيها، ولكنّه لم يوفَّقْ، كما حاول أن يتزوجَ بابنة رئيسِ جمهوريةِ البندقِيَّةِ، ليضمنَ عونَ البنادقةِ ـ وكان التجار البنادقةُ والجنويون في القسطنطينية يمارِسُونَ سياسةً جشِعَةً استنزفوا بها قُوَّةَ العاصمةِ الاقتصادية ـ ولكنّه ما لبث أن عدل عن ذلك، خوفاً من الرأي العامّ الذي يتّهِمُهُ بالميل إلى اللاتين، واعتبرت البندقية عدوله إهانة لها، فكان

ذلك سبباً من أسباب تثاقُلِهَا عن نُصْرَتِهِ عندما اشتَدَّ حِصَارُ محمدٍ الفاتحِ للقسطنطينية.

وهكذا كلُّ شيءٍ في العاصمة البيزنطيةِ (في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) في انتظار عِمامَةِ محمدٍ الفاتح وسيفِهِ أيضاً!

محمد الفاتح:
شخصيته وتكوينه وطموحُه

كان محمدٌ الفاتحُ فتى في الثانية والعشرين من عمره عندما تُوفِّيَ والدُه مرادٌ الثاني وتولى السلطةَ من بعده، ولكنّه كان قد مارس السُّلطةَ الفعلية قبل ذاك وعمرُهُ أربعَ عشْرَةَ سنة، عندما فُجِعَ والدُهُ بولده البكر علاءِ الدينِ، فاشتد حزنُهُ عليه، وزهد في الدنيا والمُلْكِ، وتنازلَ لابنه الثاني محمدٍ، ثم عاد إلى عرشه، لِيُحارِبَ الفرنجةَ الذين طمعُوا بالسلطانِ الفتى، ونقضوا المواثيقَ التي عقدوها للسَّلامِ، فهزمهم

في معركةِ وارنة المشهورةِ هزِيْمَةً ساحِقَةً، ثم عاد إلى عزْلتِهِ، مُتنازِلاً لابنه محمدٍ عن العرش للمرة الثانية، ولكنَّ ثورةَ الإنكشارِيَّةِ في العاصمة أدرنه على السُّلْطانِ الفتى دفعتْ أباه إلى العودة لِيَتوَلَّى الأمرَ بنفسه من جديد، ويُخضِعَ الثائرين، ويُمسِكَ بمقاليدِ الحُكْم إلى وفاته عام ٨٥٥ هـ، وحينذاك يتولّى الفاتحُ السلطَةَ بعد تجربتين سابقتين، أعانتا على تكوين شخصِيَّتِهِ، وزوَّدَتاهُ بالخبرة، وأَغْنَتَا وعيَهُ في الشؤون السياسيةِ والحربيةِ والإدارية، ويَسَّرتا له الطريقَ لتحقيقِ مطامحِهِ الكبيرة.

كانتْ أمُّ الفاتح أميرةً نصرانية، ويبدو أنَّ لها أثراً في تربيةِ ولدِها، لأننا سنراه يتكلَّمُ اليونانيةَ واللاتينيةَ، وقد تلقَّى دون ريبٍ تكويناً ثقافياً ممتازاً، على يدِ أمهرِ المعلمين، حتى صار يتكلَّمُ خمسَ

لغات ٍ حيَّةٍ، عدا لغته القومية التركية، فإلى جانبِ اليونانيةِ واللاتينية، كان يتكلَّمُ العربيةَ والفارسيةَ والعبريةَ، وكانت ثقافتُهُ الجامعة تتَّسِعُ للعلوم الإسلاميةِ، وقد درس بعمق تاريخَ العالِم وجغرافيتَهُ، وقرأ سِيرَ الأبطالِ في المشرقِ والمغرب، وشُغف بِسِيَرِ الفاتحين الأقدمين من أمثالِ الاسكندر المقدونيِّ، وأوغسطس، وقسطنطين الأكبر، ومهر بعلم النجوم، وكان له شَغَفٌ بالفنون وتذوُّقِها! كما تلقى الفاتحُ تربيةَ عسكرية متينةً، أهَّلتْهُ ليكونَ جندياً ممتازاً رائعاً، واستطاع أنْ يُثبِتَ كفايتَهُ العسكرِيَّةَ في المعارك التي خاضها في جيش أبيهِ، ودلَّلَ بها على شجاعَتِهِ وإقدامه واستبسالِهِ، وأهليته للقيام بالدور العظيمِ الذي ينتظِرُهُ بعد وفاةِ أبيه.

وكانت شخصِيَّةُ الفاتحِ منذ أيفع تتميَّزُ بنزعةٍ

دينيةٍ اسلاميةٍ واضحةِ الملامحِ، وميلٍ ظاهرٍ إلى التقوىٰ والتقيّدِ بتعاليم القرآن والفرائض الدينيَّةِ، وهذا الخطُّ الإسلاميُّ البارز في شخصيته هو الذي جعل منه مُجاهداً من **أَصْدَقِ** المجاهدين في سبيلِ الإسلامِ، ونشرِ دعوتِهِ، وإعلاءِ رايتِهِ، وتحقيقِ الحُلُمِ الإسلاميِّ في فتح القسطنطينية وجعلِها مدينةً إسلامية.

تلك هي شخصيةُ الفاتحِ العظيمة في تكوينها الروحيِّ والثقافيِّ والعسكري، مُجاهِدٌ مسلمٌ ورعٌ تقيٌّ مُثقَّفٌ ثقافة دينية ودنيوية جامعة، وقد تربَّىٰ تربيةً عسكرية صارِمَةً، جعلت منه جُندياً من أشجعِ الجنود، وقائداً عبقرياً من أمهرِ القادة، يخوضُ المعاركَ بنفسه، ويُخالِطُ الجندَ، ويخطبُ فيهم، ويحضُّهم على الثبات والصمودِ، ويُقدِّمُ لهم القدوةَ

الحسنةَ بشجاعته وإقدامِهِ وتقدُّمِهِ الصفوفَ، وإخلاصِهِ في جهادِهِ وتضحياته حتى النصر!

هذه الصورةُ المشرقة لشخصِيَّةِ الفاتح العظيم وأخلاقِهِ حقيقةٌ كبيرة تشهدُ بها أعمالُهُ وبطولاتُهُ وأمجاده الخالدة، إلاّ أنَّ المصادرَ البيزنطيةَ والغربية الحاقِدةَ لا تغفرُ لسيفِ الإسلامِ الفاتحِ إجهازَه على الأمبراطوريةِ البيزنطية، وقضاءهَ على مَعْقِلِ النصرانية الأكبرِ في الشرق، وتحويلَه إلى عاصمةٍ اسلامية تنطلِقُ منها جيوشُ المجاهدين لغزو الممالكِ النصرانية الأوربيةِ، ولهذا فهي تشنُّ عليه حمْلَةً من الأكاذيب والافتراءاتِ والأراجيفِ، لتمرِّغَ سمعةَ الفاتحِ، وتثأرَ لمصرعِ الحضارةِ البيزنطية المسيحية على يديه بذلك، ولهذا كانتْ صورةُ محمدٍ الفاتح في مصادر خصومِهِ والمتحاملين عليه قاتِمَةً، تتحدثُ عن

طبيعته الوحشِيَّةِ، وأخلاقِهِ الاباحية، وشهواته غير الطبيعية! حتى إنّ ادوار جيبون في كتابه عن (اضمحلال الأمبراطورية الرومانية وسقوطها) رغم اعترافِهِ بتعصّب المؤرخين البيزنطيين على محمدٍ الفاتح، لم يستطعْ أنْ يتحرَّرَ من التحامُلِ على الفاتحِ العظيمِ، فسمّاه (المُدمِّرَ العظيمَ)!

ولا عجب في هذا: فإنّ قاهرَ القسطنطينية في نظر الحقيقةِ والإسلامِ فاتحٌ عظيمٌ، وهو في نظر خصوم الاسلامِ والمتحاملين عليه مُدمِّرٌ عظيمٌ!

وقد آن لنا أن نرافق محمداً الفاتح في معركةِ الفتحِ من بدايتها، ونشهدَ حِصارَهُ البطوليَّ للعاصمةِ المنيعة، ودخولَهُ المظفَّرَ إليها بعد سقوطِها.

الإعداد لمعركة الفتح

منذ تولّى الفاتحُ زمامَ السلطة بعد وفاةِ أبيه بدا واضحاً أنّ للسلطانِ الشاب الجديد مطامحَ بعيدةً وأنّ العاصمةَ العثمانية (أدرنة) لا تتّسِعُ لطموحِهِ، وكانتِ القسطنطينية تفصل بين الجزءِ الأوربيِّ من الدولةِ العثمانية والجزءِ الآسيويِّ منها، ولم يكن للعثمانيين أسطولٌ قوِيٌّ يضمنُ لهم السيادةَ في بحر المرمرة، ولهذا كانتِ العاصمة البيزنطية مصدرَ خطرٍ جاثم في قلب الدولةِ العثمانية، بل هي كالخنجر يُهدّدُها بالطعن في ظهرها، ولم تكتفِ القسطنطينية

بتحريضِ أوربا النصرانية على العثمانيين، ففتحتْ أبوابَها لكلِّ خارجٍ عليهم، تُرحِّبُ بالعصاة والمتمرّدين، وتؤوي بعضَ الأمراءِ العثمانيين الطامحين إلى العرش، وتُهدِّدُ السلاطين بهم، وتبتزُّ منهمُ الإتاواتِ لذلك، بدعوى أنها نفقاتٌ للأمراء المحجوزين لديها، وقد بدأ الفاتحُ عهدَهُ بعقد مُعاهداتِ السلامِ مع الأمبراطور قسطنطين وغيرِهِ من الأمراءِ والحكامِ، ورضي أنْ يُخصِّصَ راتباً كبيراً للأمير العثماني أورخان، الذي كان معتقلاً في القسطنطينية، لِيَسْتفِيدَ الفاتحُ من فترة التهادن والسلام، فيقوم بتقويةِ الجيشِ ودَعْمِهِ وبناء الأسطول، وتنظيم أجهزة الدولة، وإقامَةِ القلاع والحصون في أطرافِ السَّلْطَنةِ، ويؤكِّدُ المؤرخون أنَّ الفاتحَ انصرف في بداية حُكمِهِ لاصلاح الحياةِ

الاقتصادية في دولتِهِ، وحَصْرِ النفقاتِ وضغطِها، وتوجيه الميزانيةِ لخدمة الأهدافِ الكبيرةِ التي كان يَطْمَحُ إليها، ويذكرون أنّه ألغى النفقاتِ الباهظةَ التي كانت تُصْرَفُ على اللهو في قصور أبيه، وحوّلها إلى ميزانيةِ الجيشِ، وتخفَّفَ من الحاشيةِ الكبيرةِ التي كانت تعيشُ في القصورِ السُّلطانيةِ، ومن بينها سبعةُ آلاف ٍ من الرجال للصيد بالصقورِ، أمر بتحويلهم إلى الخدمة في الجيش!

ويبدو أنّ أمبراطورَ القسطنطينية ـ وقد أغراه تسامحُ الفاتحِ وتساهلُهُ في بداية حُكْمِهِ ـ كان يترقَّبُ الفُرْصَةَ للغدرِ به، وقد سنحت بثورةِ أميرِ القرمان على الفاتح، وزَحْفِ السُّلطانِ إلى آسية الصغرى للقضاء ِ على الثورة، فتحرَّكَ الأمبراطورُ وأرسل وفداً إلى الفاتح يُطالِبُ بالدفع الفوري

والمُضاعَفِ لنفقاتِ الأميرِ أورخان، ويهدّدُهُ بإطلاق سراحِهِ وإمدادِهِ بجيشٍ من عنده، يسحقُ الفاتحَ و يُجلِسُ الأميرَ أورخان على عرش السلطنةِ العثمانية محلَّه! وتلقى الفاتح رُسُلَ الأمبراطورِ، وهو يُواجه جيشَ أميرِ القرمان، في آسية الصغرى، فكتمَ غضبَهُ، وأحسَنَ مقابلةَ الوفدِ وهو يحملُ إليه الإنذارَ والتهديد. ووعد بالنظر في طلب الأمبراطور فيما بَعْدُ؛ ودلَّ الفاتحُ في هذا الموقف على قدرتِهِ السياسية وحكْمَتِهِ وبُعْدِ نظرِهِ فحالت مُلاينتهُ لحَمَلَةِ الإنذارِ، وإحسانُه لقاءَهم، دونَ قيامِ الأمبراطورِ بقطع خطِّ الرجعةِ على الفاتح وجيشِهِ، وهو بعيدٌ عن أدرنة مقرِّ دولتِهِ. وعندما عاد السلطانُ بعد القضاءِ على الثورة إلى عاصمته، انكبَّ على الاستعداد لحصَارِ القسطنطينية، وراح يخطِّطُ للمعركة الكبرى الفاصِلَةِ

التي يُجْهِزُ بها على المدينة التي ما فتئتْ تُهدِّدُ أمنَ الدولةِ العثمانية واستقرارَها من حين إلى آخر، وأمر أنْ يُواليَ الجيشُ العثماني جهودَه، في الإعداد لمعركة الحِصَارِ البريِّ والبحريِّ، وراحتِ الأجهزةُ العسكرية العثمانية تعملُ ليلَ نهارَ بإشراف السلطان نفسِهِ، وقد رأى محمدٌ الفاتحُ أنْ يعملَ على حَصْرِ القسطنطينية وعزلها وقطعِ الاتصال بينها وبين البلادِ التي قد تَخِفُّ إلى نجدَتِها وتقديم العون لها، فراح يعقدُ الاتفاقاتِ والمعاهداتِ السلميةَ مع البندقيةِ والمجر والإفلاق والبوسنة وغيرِها من الدول والإماراتِ النصرانية، وانصرف إثر ذلك إلى بناء قلعَةٍ حصينةٍ على الشاطىء الأوربي من البوسفور، بإزاء القلعةِ التي كان السلطانُ بايزيد الأولُ بناها على الشاطىء عند أضيقِ موضعٍ من مضيق

البوسفور، لِيُحْكِمَ بذلك إغلاقَ الممرِّ المائي، و يَحُولَ دون وصولِ النجداتِ إلى القسطنطينية من البحر الأسودِ، و يؤكد المؤرخون أنّ السلطانَ نفسَه مع كبار رجالِ دولتِهِ، والقضاةِ والفقهاءِ، شاركوا فعلياً في عمليات بناءِ قلعةِ (روملي حصار) فخلعوا ملابسَهُم الزاهيةَ الثمينةَ، وراحوا يعملون في نقلِ الحجارة والتراب، مع ثلاثةِ آلافٍ من الفعلة والبنّائين الذين دعاهم الفاتحُ فلبوا النداءَ، من جميع أطراف السلطنة العثمانية، وقد قسَّمهُمُ الفاتحُ إلى فِرَقٍ، وجعل لكلِّ فرقة قسماً من العمل تتولى انجازَهُ، وتزاحمَتِ المناكبُ للعمل بهمَّةٍ جبارة، ونشاطٍ لا مثيلَ له، وقدَّمَ الجيشُ العثماني خدماتِهِ الكبيرة، وكانَ العملُ في بناء أسوارِ القلعة الجبارةِ لا ينقطعُ ليلاً ولا نهاراً، حتى نهضَتِ القلعةُ الشامخة الجديدة على بُعْدِ خمسةِ أميالٍ من أسوار

القسطنطينية، وأطلَّتْ على المضيق بأسوارها المنيعَةِ الضخمةِ، وأبراجِها المُخيفَةِ، وحشد الفاتحُ فيها حاميةً كبيرة من الجندِ الانكشاريَّةِ، وأصبح مهمتها أنْ تقطعَ الطريقَ على أيَّةِ سفينةٍ تجوز إلى البسفور!

وأعلن الفاتحُ عند ذاك أمرَهُ بإلغاء النفقاتِ التي كانت تُدْفَعُ للأمير العثمانيِّ أورخان، المُحْتجزِ في بَلاطِ القسطنطينية، وقدَّم بذلك أول صفْعةٍ للامبراطور البيزنطيِّ، فلمّا أحسّ قسطنطين بها، وشعر بما يقومُ السلطانُ به من إعدادٍ مُتواصِلٍ لحصاره، تملَّكَهُ الفَزَعُ، وأدرك مبلغَ خطئه وحمقِهِ في إثارةِ السلطانِ عليه، وندم على ما كان منه، وسكتَ عن المطالبة بمصاريفِ الأميرِ أورخان، وبعث إلى الفاتحِ لتوكيد اتفاقِيَّةِ الهدنةِ والسلام بين الدولتين، و يسألُه أنْ يوقفَ بناءَ القلعةِ، التزاماً

باتفاقية السلام بينهما، فأجاب الفاتحُ بأنّه حرٌّ في توفير أسبابِ الدفاع والحيطَةِ لتأمين أراضيه، وليس في بناء القلعةِ أيُّ نقضٍ للعهد القائم بين الدولتين، وعلى الامبراطور البيزنطيِّ أنْ يُدرِكَ أنَّ السلطانَ العثماني الحالي يختلف عن أجداده، وأنّ عزماً فوقَ عزمِهم، وقوةً فوق قُوّتِهم، ولن تستطيعَ قُوّةٌ أنْ تمنعَ السلطانَ من أنْ يبنيَ فوق أرضِه ما يُريد من قلاعٍ وحُصُون!

وازدادت عند ذلك مخاوفُ قسطنطين، وراح يتودَّدُ إلى السلطان، ليوقفَ ما يقومُ به من إعدادٍ وتأهّب لحصار القسطنطينية، ولكنّ الفاتحَ كان يُوالي تجهيزاتِهِ وإعداد خططه وقُوّاته دون انقطاعٍ، ويُعدُّ انجازُه لبناء القلعةِ الضخمة في ثلاثة أشهرٍ أعجوبةً أذهلت كلَّ مَنْ شاهدها مكتمِلَةَ البنيان في

شعبان ٨٥٦ هـ/أواخر آب ١٤٥٢م، وقد جثمت بجدرانِها السميكة وأبراجها المغطاة بالرصاص، ونُصبت فيها المجانيقُ والمدافعُ الضخمةُ، وقد صُوّبت أفواهها إلى المضيق، لِتلقي قذائفَها على كلِّ سفينةٍ لا تخضع للتفتيش ودفعِ ضريبة المرور!

ومضى الفاتحُ في جهوده لاستكمالِ معداتِهِ لحصارِ القسطنطينية، وقام مع سرية من جيشِهِ بجولةٍ تَفَقَّدَ فيها أسوارَ العاصمةِ البيزنطية، و استطلع مدى قُوّتها، ورجع إلى أدرنة مع أول الخريف، وقد أيقَن أنّ الحِصارَ سيكونُ شاقاً جداً، وأنّ من الخير له أنْ ينتظرَ الربيعَ القادِمَ للبدء به، وأمضى الخريفَ في إحكام تطويقِ المدينةِ وعزلها، بتطهيرِ المناطقِ المجاورة لها، وأصبحتِ الدّورِياتُ العثمانية تطوف بها، و بدأتِ العلاقاتُ بين الترك والبيزنطيين تتدهورُ

إلى حالة خطيرةٍ من التوتر والعداء والتصادم.

وأقبل الشتاء ببردِه وثلوجِه، وكان شتاءً قارساً، فاغتبط الأمبراطورُ وظنَّ أنَّ البردَ سوف يصرفُ السلطانَ عن موالاة الاستعداد للحرب، ولهذا أرسل إلى أدرنه وفداً لمفاوضة السلطانِ بذلك، وأجاب الفاتحُ: ـــإذا كان أمبراطورُكم يخشى الحربَ فليسلّم لي القسطنطينية، وأقْسِمُ أنّ جيشي لن يتعرضَ لأحد في نفسه أو ماله، ومَنْ شاء بقيَ في المدينة وعاش فيها بأمنٍ وسلام، ومَنْ شاء رحل عنها أنّى أراد، بأمن وسلامٍ أيضاً!

وأيقن قسطنطين أنَّ الفاتحَ عازمٌ على الحربِ دون ريبٍ، فأرسل بعضَ القُوَّاتِ لتخريب القلعةِ، ولكنّ العثمانيين ردُّوها على أعقابها، وتواتَرَتِ المناوشاتُ بين الأتراك والبيزنطيين من فلاّحي

القُرىٰ المجاورةِ للقسطنطينية، هلك فيها كثيرٌ من الروم، وإثر ذلك أمر الأمبراطورُ بإغلاقِ أبوابِ عاصمته، واعتقال جميع الأتراكِ المقيمين فيها، وأرسل إلى السلطانِ رسالةً يقول فيها: ـ «إذا كان هناك خَطَرٌ يهدِّدُ القسطنطينية فإنّ الامبراطورَ يلوذُ بعصمة الله ويخضَعُ لمشيئته، وإنّه ما أغلق الأبوابَ إلاّ بعد أن نُقِضَتِ الهدنةُ علانية، وإنّه سيدافع عن عاصمته لآخر قطرة من دمه إلخ...»

فأجاب السلطانُ بأنْ أعلن الحربَ على الأمبراطور فوراً، وانصرف الطَّرفانِ لموالاة استعدادِهما للمعركة المرتقَبَةِ!

و يذكر المؤرخون بين التجهيزاتِ الحربية التي أعدَّها الفاتحُ لمعركة الحصار صُنْعَهُ مِدْفَعاً ضَخْماً، يقذف قذائف هائلةً، تكفي لدكِّ أسوار

القسطنطينية، وكان مهندسٌ مجريٌّ يُدعى (اوربان) قد تعهّد للسلطان بصنعِهِ، وكان من أَمْهَرِ صانعي المدافعِ في زمانه، وكان قد طاف على البلدانِ الأوربيةِ يعرِضُ تقديمَ خدماته إليها، فلم يُصْغِ إليه أحدٌ، ووصل إلى القسطنطينية، وأمضى في خدمة امبراطورِها فترةً، ولكنّ الأمبراطورَ لم يستطعْ أن يُرْضِيَ جشعَ أوربان إلى المال، ففرَّ إلى السلطانِ الفاتحِ الذي غمره بالأموال والحفَاوَةِ، واستطاع بذلك أنْ يفجِّرَ عبقريتَهُ الهندسيةَ، في صنع مِدْفَعٍ ضخمٍ عملاقٍ لم يرَ العصرُ مثلَهُ في ضخامته وكبرِ حجمه وسعَةِ فوَّهَتِهِ، يزن سبعمائة طن، وتَزِنُ القذيفةُ التي يقذفها اثني عشر ألفِ رطلٍ، يجرُّه مائةُ ثورٍ، بمساعدة مائة من الرِّجالِ، ولا يتحركُ إلاّ بصعوبة، وقد قطع الطريقَ من أدرنة إلى موضعِهِ

أمام أسوارِ القسطنطينية في شهرين، وهو طريقٌ يُقطَعُ عادة في يومين، واستغرق صنعُهُ ثلاثةَ أشهرٍ، وكان لانطلاق قذائفِهِ دويٌّ هائل يصمُّ الآذانَ، ويُسمع على بعد ثلاثة عشر ميلاً!

كان هذا (المِدْفَعُ السلطاني) بحقٍ سلطانَ المدافعِ في عصره، وقد أثار حماسةَ الجندِ العثمانيين. وأيقنوا أنّ سُلطانَهُمُ الشابَّ يُعِدُّ لمعركة الحصارِ القادمة كُلَّ ما يستطيعُ من قُوّةٍ، ويذكر المؤرخون أنّ فِكْرَةَ فتحِ القسطنطينية استولت على السلطانِ طوال ذلك الشتاء، في أواخر عام ١٤٥٢ م/ ٨٥٦ هـ، فكان كثيراً ما يُغادرُ فراشَهُ في جوفِ الليلِ، ليقفَ أمام خرائطه، ويعاودَ رسمَ مدينةِ القسطنطينية ويحدِّدَ أسوارَها ويُشير إلى المواضع التي ينبغي أن توضعَ المدافعُ وآلات الحصار لِيَسْهلَ عليها

دكُّها، ويضع العلاماتِ التي يحدِّدُ بها مواطنَ الهجوم، مع تقديرٍ للقوات اللازمة لكلِّ موطن! مُسْتفيداً من المعلومات التي تُحمَلُ إليه كلَّ يومٍ عن المدينة ووسائلِ الدفاع المتوفرةِ لدى الأمبراطور فيها، والمواردِ التي يعتمدُ عليها..

ولم يُهملِ السلطانُ إعدادَ ما يلزمه لإِحكام الحِصَارِ البحريِّ على القسطنطينية، فكانت حركةُ بناء السفنِ التركيَّةِ لا تهدأ، ليلاً ولا نهاراً، حتى أصبح لديه أسطولٌ كبيرٌ، بلغَ عددُ سفنِهِ أربعمائة، حسب تقديرِ بعض الرواياتِ البيزنطية، وهناك تقديراتٌ أخرى معتدِلَةٌ تتراوح بين ٢٥٠-٣٥٠ سفينة من مختلف الأنواعِ والأحجامِ، على أنّ السفنَ الكبيرةَ التامة التسلُّحِ كانت قليلة، لا يتجاوز عددُها العشرين، وقد غطَّتْ هذه السفنُ سطحَ مياه

بحرِ المرمرة، ومياه المضيق، وخشي الرومُ أنْ تدخلَ السفنُ العثمانيةَ إلى ميناء القرنِ الذهبيِّ فسدُّوا مدخله بسلسلة ضخمةٍ، واحتمَتِ السُّفنُ البيزنطية وراءَها، وعُهِدَ بحراسة الميناء إلى الجنويين.

وهكذا أتمَّ السلطانُ محمدٌ الفاتحُ جميعَ استعداداتِهِ للمعركة الكبرى الفاصِلَةِ، وزحف الجيشُ العُثماني على القسطنطينية، لِحِصارِها من البر والبحرِ، بقُوّاتٍ كثيفةٍ، تختلف المصادرُ في تقدير أعْدادِها: فالمؤرخون البيزنطيون القُدامى يُبالغون ويقدّمون تقديراتٍ مُغاليةً (بين ٣٠٠ و ٤٠٠ ألف مقاتل) وغايتُهُم من مبالغاتِهم تهوينُ شأنِ الفتح والهزيمةِ الساحقةِ التي قضت على الأمبراطورية البيزنطية وعاصِمتِها، أمّا المؤرخون الغربيون فيقدِّمون تقديراتٍ معتدِلَةً (بين ١٥٠ و ١٦٠ ألفاً من

المقاتلين) تلتقي مع تقديرات بعضِ المؤرخين الأتراكِ أنفسِهِم، ومهما يكن فإنّ الجيشَ العثماني الذي يقودُهُ الفاتحُ لحصار القسطنطينية هو دون ريبٍ، من حيث عددُهُ ودُرْبَتُهُ وأهبتُهُ وأسلحتُهُ، أعظمُ قُوّةٍ حُشِدَتْ للاستيلاء على العاصمةِ البيزنطية.

القوى البيزنطية
المدافعة عن القسطنطينية

أمام تلك الحشودِ الكثيفةِ الزاخرة التي أَحْدَقَتْ بالعاصمة البيزنطية من البر والبحرِ، كان الأمبراطورُ قسطنطين يبذلُ جهوداً يائسَةً في حشدِ طاقاتِ المدينةِ للدفاع عن نفسها، والصُّمودِ في وَجْـهِ الحصار العثمانيِّ المُحْكَمِ عليها، وليس ريبٌ في أنّ القوى المدافعة كانتْ ضئيلةً من حيثُ العدَدُ والأهبةُ والروحُ المعنويَّةُ، بالنسبة للجيش العثماني، بأعدادِهِ الهائلَةِ ودُربتِهِ الجيدة وأهبته الكاملةِ وأسلحته

الوفيرةِ، وذخيرته الجامِعَةِ، وروحِهِ المعنوِيَّةِ العالية، ولكنّ أكبرَ اعتمادِ العاصمة البيزنطية في الدفاع عن نفسها هو في العادة يَقُومُ على الموقع الحصينِ المُمتَازِ الذي حَبَتْها الطبيعةُ به، وعلى مناعة أسوارِها الشامِخَةِ الضخمةِ؛ وكانتْ ما تزالُ في حالة جيدةٍ قبل أنْ تدكَّها مَدَافِعُ محمدٍ الفاتحِ؛ وعلى النارِ اليونانيَّةِ، السلاحِ الفتاك الذي كان له أكبرُ الأثرِ في تحطيم الأساطيلِ العربيةِ التي شهدنا حِصَارَها للقسطنطينية قَبْلَ ثمانيةِ قرونٍ، وكانت قذائفُ النارِ اليونانية ما تزالُ سلاحاً ناجِعَاً يردُّ عاديةَ السفن والقوى المغيرةِ على العاصمة البيزنطية؛ إلاّ أنّ مواردَ الدفاع عنها غَدَتْ ضئيلةً. فسكّانُ المدينةِ لا يتجاوزون مائة وخمسين ألفاً، معظمُهُم من التجار ورجالِ الدين والنِّساءِ، وقد حاول الأمبراطورُ تجنيدَ

جميع القادرين على القتال، فرأى أنَّهُم لا يزيدون على خمسةِ آلافِ مُقاتِلٍ بينهم عددٌ كبيرٌ من القُسسِ ـ كما تقول المصادرُ البيزنطية ـ ولهذا أرسل يَسْتصرِخُ الممالكَ النصرانية الأوربية مُسْتَنْجِداً بها، فوافَتْهُ جموعٌ من المرتزِقَةِ الجنويين والبنادقة تُعدُ بزهاء ألفين من المحاربين، بقيادة جون جوستنياني الجنوي (يوحنا يوستنياني)، وكانتْ حكومةُ جنوه قد أرسلَتْهُ على رأسِ بضعِ سُفنٍ بالرجال والذخائرِ، استجابةً لاستغاثةِ الأمبراطور، كما بعثت حكومةُ البندقية ببعضِ السفنِ والإمدادات؛ ولم يزدْ عَدَدُ القوى المدافعةِ عن القسطنطينية في المصادر البيزنطية على تسعةِ آلافِ مُقاتِلٍ، أمّا المصادرُ التركيةُ فترى في هذا التقدير الهزيلِ نوعاً من الاعتذار للروم عن هزيمتهم، وهي تُقَدِّرُ القوى البيزنطيةَ بما لا يقلُّ عن

ستين ألفاً (انظر: كيف استولى الفاتح على استنبول لضياء شاكر ــعن كتاب: محمد الفاتح للدكتور سالم الرشيدي) والتقدِيرُ المعتدلُ للقوى البيزنطيةِ المدافعةِ يجعلها في نحوِ أربعين ألف مُقاتلٍ، وهو تقدير الدكتور سالم الرشيدي في كتابه الذي أشرنا إليه.

أمّا جِهازُ الدفاع البحريِّ فليس لدى البيزنطيين منه غير عددٍ هزيل من السفن، يُقدَّرُ بأربعَ عَشْرَةَ سفينة، جاء معظمها كما رأينا من جنوه والبندقية، وكانت تُعَسْكِرُ في نهاية المضيقِ، في مياه البحرِ الأسودِ، ولم يكنْ لدى المُدافِعِينَ فيها غيرُ عدَّةِ قطعٍ من المدفعية، وكمية قليلة من الذخيرة.

أمّا الأمبراطورُ قسطنطين فقد بذَلَ كلَّ ما استطاعَ من جهدٍ لإعداد العاصمةِ للدفاع والصمودِ والمقاومةِ، فوزَّعَ جنودَه على أسوار المدينةِ، وقاد بنفسِهِ

عملياتِ الدِّفاع، مُستعيناً بالقائد الجنويّ جوستنياني، ويُقالُ إنَّه عَهِدَ إليه بالقيادة العامَّةِ، ولكنَّ الروحَ المعنويَّةَ كانتْ لدى المدافعين مُنْهَارَةً، فصيحاتُ الاستغاثةِ المتضرِّعَةُ التي وجَّهها الأمبراطورُ إلى البابا والملوكِ والحُكّامِ النصارى لم تلقَ لها كبير صدى، والبابا لم يكترثْ لنداء الأمبراطور، ولم يبادِرْ إلى العمل على إغاثتِهِ إلاّ بعد فواتِ الأوان، وقد سقَطَتِ القسطنطينيةُ قبل أنْ تُبحرَ الوحداتُ التي أشار البابا بحشدِها في ميناءي جنوة والبندقية، وأمّا حُكّامُ المورة والجزائرِ اليونانيةِ، وبينهم أَخوَا الأمبراطور قسطنطين توماس وديمتريوس، فقد واجهوا نداء الاستغاثَةِ بالتزام الحيادِ، خوفاً من بطش السُّلطانِ الفاتحِ، ولم يُحرِّكْ أحدٌ منهم ساكناً، والحقُّ أنَّ الاعتقادَ كان سائداً لدى الحُكَّامِ النصارى بأنَّ

مصيرَ العاصمةِ البيزنطية أضحى محتوماً، وأنّ سقوطَها قَدَرٌ لا يمكن مغالبتُه! وكان أهْلُ القسطنطينية يستشعرون أنّ نهايةَ الأمبراطوريةِ قد دَنَتْ، وغادر المدينةَ كثيرٌ من نُبلائها وعامّتِها قبل إحكامِ الحصار، يأساً من إنقاذها، وهرباً من الأهوال التي تَنْتَظِرُها، ويُشيرُ المؤرخون إلى أنّ كثيراً من أغنياءِ العاصمةِ رفضوا إمدادَ المدافعين عنها بالأموال، فبقيَت أموالُهُم مطمورةً حتى عثر بها الفاتحون الظافرون، وظلّ الشعبُ البيزنطي مُنْهَمِكاً في مجادلاته الدينيةِ، وتعصُّبِهِ لكنيستِهِ الأرثوذكسية واستقلالها، وكانتِ المُناقشاتُ الكلامِيَّةُ مُحْتدمةً بين الغُلاة والمعتدلين، لمعرفة أيِّ العدوَّين أفضلُ، المسلمون أم اللاتين! في الوقت الذي كانتْ مَدافِعُ محمدٍ الفاتحِ فيه تقصفُ المدينةَ، وتدكُّ بقذائفها الجبارة أسوارَها.

جيش الفاتح
يُطوّق العاصمة البيزنطية

وصل الجيشُ العثماني بقيادة الفاتحِ أمام أسوارِ القسطنطينية في ٢٦ ربيع الأول ٨٥٧/٥ نيسان ١٤٥٣ وراح يتَّخِذُ مواقعَهُ لحصارها، من الجهة الغربيةِ، المُتَّصِلةِ بالقارة الأوربية، والمدينةُ ــ كما ترى صورتها في الخرائط المرفقة ــ مثلَّثَةُ الشكلِ: جانبٌ منها على بحر المرمرة، وجانبٌ على ميناء القرن الذهبي، ويمتدُّ على طولِ كلٍّ منهما سورٌ واحدٌ، أمّا الجانبُ الثالث المتَّصِلُ بأوربا من الغرب فكان عليه

خطَّانِ من الأسوار، يمتدانِ من شاطىء بحرِ المرمرة إلى شاطىء القرنِ الذهبيِّ، وأمام السورِالخارجيِّ يمتد خندقٌ واسعٌ عريض، يُعتبر خطَّ الدفاعِ الأولَ عن القسطنطينية، وللسورِ الخارجيِّ أبوابٌ كثيرة أهمُّها بابُ أدرنة، وبابُ القديس رومانوس، والبابُ الذهبيُّ، وفي اليوم التالي (الجمعة ٢٧ ربيع الأول ٨٥٧/٦ نيسان ١٤٥٣) بدأ السلطان يُعبِّىء قواتِهِ ويُنظِّمُ مواقعَها، ويوزِّعُ آلاتِ الحصار عليها، فحشد في الجهة الغربيَّةِ جُنْداً كثيفاً في ثلاث مجموعات: الأولى هي الميمَنَةُ: وتضمُّ جنودَ الأناضول بقيادة اسحق باشا، وقد طوَّقَتْ قسماً من السُّور الغربي يمتدُّ من شاطىء بحر المرمرة ويحاصرُ البابَ الذهبيَّ إلى بابِ القديس رومانوس، والمجموعة الثانية هي الميسَرَةُ: وتضمُّ جُنودَ القسم الأوربيِّ من

العثمانيين، مع المتطوعين والمقاتلين غيرِ النظاميين، بقيادة قره جه باشا، وقد طوّقَتِ السورَ الممتدَّ من شاطىء القرنِ الذهبيِّ إلى بابِ أدرنة، والمجموعة الثالثة وهي القلبُ، وتضمُّ الجنودَ الانكشارية والفُرسانَ المختارين، بقيادة الفاتحِ نفسِهِ، وقد أخذت موقعَها في مواجهة الجزءِ الأوسطِ من السور الغربيِّ، من بابِ القديس رومانوس إلى بابِ أدرنة، وأقيم خلف هذه المجموعات الأمامية حشدٌ احتياطِيٌّ ضخمٌ من الفرسان، أخذوا مواقِعَهُم في المؤخرة، لحماية مَرْكَزِ القيادة العامَّةِ الذي أقامه الفاتحُ للإشراف على العملياتِ القِتاليَّةِ، بين القلب والمؤخرةِ، وأقام عند كلِّ بابٍ من أبواب السور مُراقِباً على رأس كوكَبَةٍ من الجند، لإحكام حصارِهِ، وأرسل فِرْقَةً من الجيش بقيادة زغنوس

باشا، وهو أحدُ القادَةِ الكبار، لِيُرابِطَ فوق المرتفعاتِ المشرفةِ على (غلطة) على الشاطىء الشمالي من ميناء القرنِ الذهبيِّ، لِمُرَاقَبَةِ الجنويين الذين ينزلون في (غلطَة) وحصارِ الميناءِ، واحتشد الأسطولُ العُثمانيُّ في مياه البسفور بقيادة أميرِ البحر بلطة أوغلي، واتخذَ من خليج بشكطاش مَرْسَىً لسفنِهِ، وكانتِ المرَّةُ الأولى التي يظهرُ فيها أسطولٌ عثمانيٌّ في ميدان الحربِ، وأحدَقَتْ سفنٌ حربيَّةٌ بالأسوار المطِلَّةِ على بحر المرمرة، لِتمنعَ وصولَ أية امداداتٍ نصرانية إلى العاصمةِ المحصورةِ، وبذلك تمَّ تطويقُ القسطنطينية بقُوَّاتِ الفاتحِ العظيمة، من أطرافها الثلاثَةِ، ونصب الفاتحُ أمام السورِ البري المدافع والمجانيق، وأَحْكَمَ وضْعَهَا، وأقام ذلك المِدْفَعَ الضخم العملاقَ أمام بابِ القديس رومانوس،

الذي أصبح منذ ذلك اليوم يُسمَّى (باب المدفع ــ طوب قبو بالتركية) وبدأتْ معاركُ الحصار الكبيرِ بإطلاق القذائفِ المدفعية الهائلةِ على الأسوار.

معارك الحصار الكبير
في خمسين يوماً

بدأت قذائفُ المدافِعِ الجَبّارةِ تتوالى على الأسوار، فيكون لاصطدامها بها دَوِيٌّ هائلٌ يملأ قلوبَ أهلِ القسطنطينية رُعْباً، وبخاصة في جوف الليل، إذ كان القَذْفُ مُسْتمِرّاً، ليلاً ونهاراً، وذُهِلَ البيزنطيون وهم يرون سُحُبَ الدُّخانِ والترابِ تُغطِّي أطرافَ العاصمةِ المحصورة، وما كانوا يظنون أنّ لمدافِعِ الفاتح العملاقة كلَّ هذا الأثرِ في نفوسهم، واعتصم المدافعون وراءَ الأسوارِ، واكتفوا بإلقاء

بَعْضِ قذائفِهمُ النارِيَّةِ والحجرية على مُحَاصريهم، من آنٍ لآخر، ضناً بذخيرتِهمُ المحدودةِ، ومدافعة لمهاجميهم، في انتظار النجدةِ والإمداداتِ التي يتلهَّفون على وصولها من الممالِكِ النصرانِيَّةِ لإغاثتهم، وكان الامبراطورُ قسطنطين قد اتخَذَ مَرْكَزاً لقيادةِ المقاومة والدفاعِ، عندَ الأسوارِ الغربية، في مواجهة قَلْبِ الجيشِ العُثماني وقيادتِهِ العامَّةِ، ما بين بابِ أدرنة وبابِ المدفع، ومعه القائدُ الجنوي جوستنياني، وكان كثيرَ الاعتمادِ عليه، لشجاعتِهِ وتجربتِهِ ومهارته ونشاطه وتأثيرِهِ في معنوياتِ جُندِهِ، وكذلك مضتِ الأيامُ الأولى من الحصار في محاولاتٍ ومعارِكَ جزئيةٍ يتخلَّلُها قصفُ المدافع التركيَّةِ الشديد، وكان المدافعون وعلى رأسِهِمُ الأمبراطورُ جوستنياني دائبي الحركةِ والنشاط والحماسةِ، لا

يكادُ يتلفُ جانبٌ من السور حتى يُسرعوا إلى إصلاحِهِ وترميمِهِ، تحت وابلٍ من القذائف المُنْهارةِ، وقد استطاع العُثمانيون بعد أسبوعين من مُوالاةِ قذائفِ مدافِعِهم أنْ يهدُّوا جزءاً من السور الخارجي، في القسم الأوسطِ، عند وادي ليكوس، وكان أَضْعفَ أقسامِ السُّورِ، فتهاوت أنقاضُه، وامتلأ بها الخنْدَقُ، فاندفع الجنودُ الانكشارية بشجاعة فائقةٍ، لا يبالون بالموتِ، في هجوم على تلك الثغرةِ، وتسلَّقُوا السُّورَ بالسلالم، فوجَّهَ قسطنطينُ جميعَ رجالِهِ المدرَّعين إلى الثغرة، واشتدَّ القِتالُ عندها بين الطرفين، واستبسل كلٌّ منهما في صراعٍ مُسْتميتٍ ولكنّ الثغرةَ كانت ضيِّقَةً، وكان الأتراكُ لا يملكون فيها حريةَ الحركةِ والقتالِ، وأمطرَهُمُ المدافعون بالسِّهام والنبالِ، واستمرَّ القتالُ بعنف رغم ذلك،

من مساء ذلك اليوم (١٩ نيسان) حتى ساعةٍ متأخِّرةٍ من الليل، وكان القتالُ يدور تحت ضوء القمر، إلى أنْ أظلم الليلُ فأمر الفاتحُ جنودَه بالانسحاب، بعد أنِ اسْتُشهِدَ قرابةُ مائتين منهم.

وفي اليوم التالي (٢٠ نيسان) ظهرت في بحر المرمرة خَمْسُ سُفُنٍ نصرانِيَّةٍ قادِمَةٍ من الغرب، تحمِلُ الرجالَ والعتاد والقوت، في طريقها إلى ميناء القرنِ الذهبيِّ، وبلغ الخبرُ السُّلطانَ الفاتح، فترك مَرْكَزَ القيادةِ العامَّةِ، وأسرع على حصانه إلى شاطىء غلطة، وأمر قائِدَهُ بالطه أوغلي أنْ يستوليَ على القافلة أو أنْ يُغرِقَها، ولكنّ السفنَ النصرانية كانت مُجهَّزةً بمدفعيةٍ حسنةٍ وبحّارَةٍ حسني التدريبِ، فتصدَّتْ للسفنِ التركية المُهاجِمَةِ، وأمطرتها بالسهام والقذائفِ الناريَّةِ، وأحرقت بعضَها،

واستطاعتِ القافِلةُ برغم استبسالِ أميرِ البحر التركي وجندِه أنْ تشقَّ طريقها سالمةً إلى الميناء، وكان السلطانُ الفاتح يرقبُ بنفسِهِ الصراعَ المُسْتميتَ بين المسلمين والنَّصارى في البحرِ، على مرمى حجرٍ منه، وهو على الشاطىء، والبيزنطيون يرقبون المعركةَ من فوق أسوارِهم، ولمّا رأى الفاتحُ ما نزل بسفنه ورجالِهِ من القتل والتمزيقِ لم يتمالك نفسَهُ، فاندفع بحِصانِهِ نحو البحر، وغاص به إلى صدره، وقد تملّكه الغيظُ وهو يشهدُ القافِلَةَ النصرانيةَ تجتازُ مدخلَ القرنِ الذهبي، حيث أنزل الرومُ السلسلة الحديديةَ الضخمة، ثم شدُّوها بعدَ انسيابِ السفن إلى ملاذٍ أمين!

وغمرت موجةٌ من الفرح والتفاؤلِ أهلَ القسطنطينية، للنصر البري والبحريِّ خِلالَ اليومين

الأخيرين، وقوِيَ لديهم الأملُ بأنْ تكون السفنُ الخمسُ التي تحملُ إليهمُ العونَ من الرجال والعتادِ والزّادِ، مُقدّمةً لأسطولٍ كبيرٍ يُنجدهم ويُنقذُ عاصمتَهُم من السقوط، فأقيمَتْ مواكبُ الأفراحِ، ودُقَّتْ أجراسُ الكنائس، في محاولةٍ لرفع معنوياتِ المدينةِ المحصورة!

أمّا السُّلطان محمدٌ الفاتح فلم ييأس، وازداد إصراراً على مُتابعةِ حِصَارِهِ، وعَزَلَ أميرَ البحرِ المقهور من منصبه، وجَعَلَ مكانه القائدَ حمزةَ باشا، وعَقَدَ مجلِساً للشورى، وكان يضمُّ الصدرَ الأعظم خليل باشا، وكان يُمالىء الروم سرّاً، وعدداً من كبار قادةِ الجيشِ، وفيهم زغانوس باشا، زوج أختِ الفاتحِ وصفيُّه، والمولى محمد كوراني مُؤدِّبُ السلطان، والشيخُ آق شمس الدين، القطبُ

الصوفيُّ الذي كان يُلهِبُ حماسةَ الجندِ بمواعظه وخُطبِهِ، وكان رأيُ المجلِسِ ـ باستثناء رأي الصدر الأعظم ـ أنْ يُتابعَ السلطانُ معركةَ الفتح حتى النصرِ، وقد استراح الفاتِحُ إلى ذلك، وازدرى نصيحةَ صدرِهِ الأعظم الذي كان ينتهز كلَّ فرصة لتثبيط همّةِ السُّلطانِ ودفعِهِ إلى رفع الحصار، والاكتفاءِ بفرض جزيةٍ كبيرة على الامبراطور البيزنطي، وتوكيدِ اتفاقات السلام معه!

وبدأت عبقريةُ الفاتحِ تتكشف عن خططه لقهر المدينةِ الصامدة: وأولها مشروعٌ جريء لنقل السفنِ التركية من مرساها في بشكطاش إلى القرنِ الذهبيِّ، وذلك بجرِّها فوق اليابسة، على الطريق البريِّ الواقعِ بين الميناءين، بعد انهيارِ مُحاولاتِ الأسطول العثمانيِّ لتحطيم السلسلةِ الضخمةِ التي

تسدُّ مدخلَ الميناء، وكان بإمكان الفاتحِ أنْ يحطِّمَ طرفَ السلسلةِ القائم على شاطىء غلطة، وكان عليه لذلك أنْ يجتاحَ غلطة ويحتلّها، وهي مدينةٌ الجنويين، وبينهم وبين الفاتحِ معاهدةُ سلامٍ، وكان أهلُها ـ كما سنرى ـ تجاراً حريصين على كسب المالِ، وعلى تقديم الخدماتِ للسلطان المعروفِ بسخاء يده، وإن كانوا يميلون بعواطفهم إلى الروم و يتمنون لهم النَّصْرَ! ولهذا أقدم السُّلطانُ على تنفيذ فكرتِهِ الجريئةِ التي تمَّ إنجازُها بسرية تامة، فعُبِّدتِ الأرضُ، بين الميناءين، على طول ثلاثةِ أميالٍ، وتمَّ التغلبُ على الوهاد والتلالِ والمرتفعاتِ والمنخفضات بمدِّ ألواحٍ من الخشب، صُنعَتْ مستويةً، ودُهنت بالزيوت والشحوم، ليسهلَ إزلاقُ السفن فوقها، وفي ليلة واحدة (٢١-٢٢ نيسان) تمَّ

جرِّ سبعين من خفاف السفنِ التركية، فانزلقتْ فوقَ الألواحِ المدهونة، وكأنها تجري على اليمِّ، وظهرت براعةُ الفاتحِ في صَرْفِ جواسيس الروم والجنويين في غلطة عن الانتباه لما يجري، فظلَّتِ المدافعُ التركية العملاقةُ طوال اليوم الحادي والعشرين من نيسان تُوالي إطلاقَ قذائفها البعيدة المدى، من وراء أسوارِ غلطة، فتمرُّ فوق مدينةِ غلطة، وتتساقطُ في ميناء القرنِ الذهبيِّ، وأصِيبَتْ إحدى السفنِ النصرانية بقذيفةٍ أغرقتها، فأسرعت بقيةُ السفنِ إلى أسوارِ غلطة واحْتَمَتْ تحتها، وشُغِلَ أهلُ غلطة بما تملكهم من رُعْبٍ، وهم يشاهدون تطايرَ القذائف الحجرية الضخمة، وهي تمرقُ فوق رؤوسِهم، بصفيرها المخيفِ، كما قامت عدَّةُ سفنٍ تركية بمحاولات لاقتحامِ السلسلةِ وتحطيمِها، وحقَّقَتْ بذلك الغاية

من صرفِ انتباهِ الروم إلى ما يجري، واستيقظ أهلُ القسطنطينية صباح ٢٢ نيسان ليشهدوا السُفُنَ العثمانية تملأ ميناءَ القرنِ الذهبي، وهتاف بحّارتها ومحاربيها يتعالى، مُمْتَزِجاً بصخب موسيقاهم العسكرِيَّةِ، فأسرعَ الأمبراطورُ إلى الأسوار المُطِلَّةِ على القرن الذهبيِّ، وهو يتضرَّعُ إلى السماء أنْ تُعينَه، وانتشرت في القسطنطينية نبوءةٌ تقول، ستسقط المدينةُ عندما يشهدُ أهلُها سفناً تجري فوقَ اليابسةِ!

وانحازَتِ السفنُ العثمانِيَّةُ إلى أعلى الميناء، لتحميها القُوات التركية البريةُ القريبة المُعَسْكِرَةُ على الضفتين، فلا تجرؤ السفنُ النصرانيةُ الراسية في الميناء على الاقترابِ منها، وأمر الفاتحُ بنصب جسرٍ عائم، أقِيمَتْ فوقه المدافعُ، وراحت توالي قَذْفَ ذلك الجانبِ من أسوار العاصمةِ البيزنطية.

واضطُر الأمبراطورُ إلى عقد مَجْلِسٍ استشاري، فدعا القائدَ جوسنتياني وبعضَ القادةِ الكبارِ، واجتمعَ بهم في كنيسة القديسة ماري، وشاورهم في أمر السُّفُنِ التركيَّةِ المرابطة في ميناء القرنِ الذهبي، فأجمعَ رأيُهُم على ضرورة التخلُّصِ بها، بهجومٍ ليليٍّ مُباغِتٍ يقضي عليها تحريقاً وتدميراً، واختير القائدُ البندقي جاكومو كوكو لقيادة هذه الحمْلةِ البحريَّةِ التدميرية، ولكنّ الخبرَ تسرَّبَ إلى الجنويين في غلطة، فأبلغوا السلطانَ الفاتحَ، فأخذ أهبتَهُ لحماية السفنِ والجسرِ العائم وإحباطِ الحمْلهِ الهجومية التي بدأت عصرَ يوم ٢٨ نيسان بمحاولة قامتْ بها ثلاثُ سُفُنٍ بالاقتراب من السفن التركيَّةِ، فصبَّ الأتراكُ عليها قذائفَهُمُ الناريَّةَ وأحرقوها في الحال، وأغرقوا معها نحواً من مائةٍ من البحارة والضباطِ، وعاود

البنادِقَةُ محاولَتَهُم في جوف الليلِ، بقيادة جاكومو كوكو، الذي كان يأملُ أنْ يُضرِمَ النَّارَ في سفن الأتراكِ ويشوبهم شيّاً، وأومض نورٌ خاطفٌ في قمة برج غلطة، ففهم الأتراكُ الانذارَ الجنويَّ، واستعدوا لاستقبال السفنِ الدالفة في الظلام، وفي مُقَدِّمتِهَا سفينةُ القائدِ البندقي، وأطلقوا عليها قذيفةً ضخمة فَلَقَتْهَا شطرين، وابتلعها اليمُّ بكلِّ ما فيها ومَنْ عليها، وتوالتِ القذائفُ في ظُلْمةِ الليل الدامس، وأخفقَتِ الحمْلَةُ وقبض الأتراكُ على نحو أربعين من البحارة البنادقة، وذبحوهم عند مطلعِ النَّهارِ، أمام أعين المدافعين، وبادر البيزنطيون إلى الانتقام العاجِلِ، فقتلوا من الأسرى المسلمين المُحْتَجَزِيْنَ لديهم مائتين، وألقوا برؤوسِهم من فوقِ الأسوارِ! وراحَ البنادقةُ والجنويون في المدينة يتبادلون

الاتهاماتِ بالخيانةِ، وكادوا يَقْتَتِلُونَ، فأسرع الأمبراطورُإلى تهدئة الخِلافِ بين الطرفين، وناشدهما ألاّ يزيدا المدينةَ كرباً وبلاء!

وفي الرابع من أيار قام القائدُ جوستنياني بنفسِهِ بمحاولة لإحراق الأسطولِ التركيِّ في ميناء القرنِ الذهبي، فركب مع نُخْبةٍ من معاونيه ورفاقِهِ سفينةً كبيرة، تسلَّلُوا في قلب الظلام، للقيام بتلك المهمة، ولكنّ جنويّي غلطة أخطروا الأتراكَ سِرّاً كعادتِهِم، فاستقبل المسلمون سفيتة جوستنياني بنارٍ كثيفةٍ أغرقتها، وأغرقتْ معها قُرَابَةَ مائةٍ وخمسين من خيرة البحارةِ الإيطاليين، وتوالتِ الصدامات البحريَّةُ بين السفن التركيةِ والنصرانيةِ القابعة في ميناء القرنِ الذهبيِّ، ثم راح العثمانيون يقومون بالهجوم تلو الهجوم على الأسوار، لاستنزاف طَاقَةِ المقاومين

واسْتِنْفادِ ذخائرهم، في السابع من أيار، ثم في الثاني عشر منه، وكانتْ خسائِرُ الأتراكِ فادِحَةً، ولكنّ صبرَ المدافعين بدأ ينفذ، وأصبحتِ المدينةُ المحصورة تشعر بوطأة الحصارِ الشديد عليها، في تناقُصِ المؤنِ والطعامِ والنبيذ، وعمد الفاتحُ في السادس عشر من أيار إلى مُحاوَلةٍ جريئةٍ أخرى من محاولاتِهِ للاستيلاء على المدينة، عن طريق حفرِ أنفاقٍ تحت الأرضِ، للتسلل منها إلى داخل القسطنطينية، غير أنّ أهلَ المدينةِ اكتشفوا المحاولةَ، وحشد الأمبراطورُ جميعَ مَنْ في المدينة من المهندسين لإحباطها، وأشار بعضُهم بحفر سراديبَ مُضادَّةٍ، ومُباغَتَةِ الأتراكِ عند خروجهم من أنفاقهم إليها، ففُعلَ ذلك، وصبَّ الرومُ على المتسلّلين النارَ والنفط والمواد الحارقة، وأخفق ذلك التدبيرُ، ولكنّ الخوفَ أصبح يشملُ

النَّاسَ في المدينة، إذ خُيِّلَ أنّ الأرضَ ستنشقُّ من تحتهم، لِيخرجَ منها الجنودُ الفاتحون!

ولكنّ الإخفاقَ لم يزدِ السلطانَ الفاتح إلا عناداً وإصراراً على تحقيق النَّصْرِ، والتماسِ الوسائل الكفيلةِ بقهر المدينة والاستيلاء عليها، وفي صباح اليوم الحادي والعشرين من أيار فاجأ الفاتحُ أعداءَهُ المحصورين باختراعٍ جديدٍ، إذ شاهدواأمام أسوارِهم قلعةً ضخمةً شامِخَةً من الخشبِ، تُطاولُ بارتفاعها علوَّ الأسوارِ، وهي ذاتُ ثلاث طبقات، كُسِيَتْ كلُّها بالجلود السميكةِ المبلّلَة بالماء، لكيلا تؤثِّرَ النارُ فيها، وحُشِدَ في كلِّ طبقةٍ من طبقاتها عددٌ من الجنودِ والقذائف وآلاتِ القِتال، وتحملُ في أسفلها الترابَ والأحجارَ والأخشابَ لردم الخنادق، وجُعِلَتْ في أعلاها سلالمُ من الحبال، في أطرافها

الكلاليبُ، لِتُلْقَىٰ على الأسوار، فتتعلق بها، ويمر عليها الجندُ كالقنطرة، وذُهِلَ المدافعون وهم يرون هذه القلعةَ المُتحرِّكةَ السيّارةَ، ودُهِشوا من صنعها في ليلة واحدةٍ، وأقِيمَتِ القلعةُ تُجاه بابِ المدفعِ، وبدأ الجندُ الهجومَ منها، وأسرعَ الأمبراطورُ إلى مواجهة الوسيلةِ الشيطانيةِ الجديدة بإلقاء موادَّ سريعةِ الالتهاب عليها، وقد بذل المدافعون جهوداً مُضنِيَةً حتى تمكّنوا في آخر النهار من إحراقِ القلعةِ، بعد أنْ تمكَّنَتْ من تهديم بعضِ الأبراجِ القويَّةِ في السور، فأمضىٰ الأمبراطورُ ليله يحثُّ أهلَ المدينة رجالاً ونساءً وأطفالاً على إصلاح البرج المتهدّم.

وفي اليوم الثالث والعشرين من أيار تأكّد الأمبراطورُ من أنّه يخوض معركةً يائسة، إذ عادت بعضُ السفنِ النصرانية المتنكرة، والتي خرجتْ من

ميناء القرنِ الذهبي وهي ترفعُ العلمَ التركيَّ، لِتبحثَ في بحر المرمرة عن أسطولِ الانقاذِ المُنْتظر، ثم رجعت إلى الأمبراطورِ لِتخبرَهُ بأنّها لم تعثر على أثرٍ له، فاشتد اليأس، وعمَّ المدينةَ الحزنُ والألم، واعتزل بطريرك القسطنطينية منصِبَهُ قانطاً، وعُقِدَ في اليوم التالي (٢٤ أيار) اجتماعٌ حافل في قصر الأمبراطور لِتدارُسِ الموقفِ العصيبِ، وقد مضى على الحصار سبعةُ أسابيعَ، أنهكت قوى المدافعين، ونضبت مواردهم، واضطر الأمبراطورُ إلى تجريد الكنائسِ من ذخائرِها الأخيرةِ، من الذَّهبِ والفضَّةِ، لصهرها وسكّها نقوداً، تُدفع منها أجورُ الجُنْدِ. وحضر الاجتماعَ الأمبراطورُ ووكيلُ البطريرك المعتزلِ وكبارُ رجالِ الجيش للتشاور، وكان الجهدُ والاعياءُ ظاهرين على وَجْهِ الامبراطور، فاقترح وكيلُ

البطريرك أنْ يُغادِرَ الامبراطورُ المدينةَ، وينجو بنفسِهِ، لانقاذ حياته، فأبى الامبراطورُ الشجاعُ أنْ يُفارِقَ عاصمتَهُ وشعبه، وأعلن أنّه مُصِرٌّ على البقاء لمشاركة شعبِهِ في مصيره.

وفي اليومين التاليين (٢٥-٢٦ أيار) حدثت بعضُ الظواهر الطبيعية، فأوّلَهَا أهلُ القسطنطينية تأويلاً مُتشائِمَاً، وكانت أعصابُهُمُ المنهارَةُ تزيدُهُم تطيُّراً، إلى ما عُرفوا به من إيمان ٍبالخُرافَةِ: فقد كان موكبٌ من المتظاهرين من الرجال والنساء يجوبون شوارِعَ المدينةِ، وهم يحملون تمثالَ العذراءِ، وهمْ يستغيثون ويتضرّعون، فسقط التمثالُ من أيدي حامليهِ ووقع على الأرض، فرأى النّاسُ في الحادث نذيراً إلهياً بِقُرْبِ سقوطِ المدينة، وانقضّ في اليوم التالي نيزكٌ من السماء (نجم متساقطٌ منها) على قُبَّةِ

كنيسة أياصوفيا، فازداد النَّاسُ تشاؤماً. وأيقنوا أنّ السماء قَد تخلَّتْ عنهم، وأرسلَتْ إليهم أمارات بغضبِ اللهِ وقُرْبِ حلولِ الكارثة بهم.

وكان قد مضى على حِصَارِ الفاتح للقسطنطينية خمسون يوماً، والمعارِكُ لم تنقَطِعْ في البر والبحر، وقد تهدَّمَتْ أخيراً أجزاءٌ من الأسوار والأبراجِ، وامتلأ الخندقُ بالأنقاض والجُثَثِ، بعد أنْ عجز المحصورون عن رفعها، وأحْكَمَ الأسطولُ التركيُّ حصارَه البحريَّ للمدينة، فانقطعت عنها الموارِدُ والمؤنُ، وانتهى كلُّ مَنْ فيها إلى اليأس مِن وصول النجداتِ والامدادات، وظهر للعيانِ أنّ السبيلَ قد تمهَّدَ لقيامِ الفاتحِ بالهجوم العامِّ على جميع الجبهات، لِتَسْتَسْلِمَ المدينةُ المحصورة لقاهرِها العظيمِ، وتلقى الامبراطوريةُ على يده نهايتها المحتومة.

الهجوم الأخير العام
وسقوط القسطنطينية

أراد السلطانُ الفاتح أنْ يبذلَ قبل الهجوم العامِ على المدينة المحصورة ــ محاولةً أخيرة ليجنِّبَ العاصمةَ وأهلَها الدمارَ وأهوال الأسْرِ والسبي، فأوفد إلى الأمبراطورِ رسولاً يحثُّهُ على تسليم المدينةِ، حقناً للدماء، وحرصاً على تجنيب سكانها أهوالَ الرِّقِ، والإذلال، واستقبل قسطنطينُ رسولَ السلطانِ، وكانت تربطه به صُحْبةٌ قديمة، فعرض عليه باسم السلطان أنْ يجعلَه حاكماً على المورة، بعد تسليم

المدينةِ، ونصَحَهُ بقَبُوْلِ العرضِ السُّلطانيِّ، لوقايةِ المدينةِ من الدمار، وأبان له أنّ مواصلةَ الدفاع عنها عَبَثٌ لا يُجدي، وأنّ سقوطَ العاصِمَةِ أصبح وشيكاً، وتعّهد له بأنْ يمنَحه السُّلطانُ حريةَ الرحيلِ عنها لِمَنْ يشاءُ من سكانها، وأنْ يضمن الأمنَ والسلامةَ لِمَنْ يؤثرُ البقاءَ فيها، أماناً على نفسِهِ وأولادِهِ وأمواله! فجمع الامبراطورُ مجلِسَهُ الاستشاريَّ، وعرض الأمرَ عليه، فأصر الجميعُ على مُواصلةِ الدفاعِ، مهما تكنِ النتائجُ، وأجاب الامبراطورُ على عرْضِ السلطانِ بأنّه أقسم أنْ يُدافعَ عن عاصِمتِه إلى آخر نفسٍ في حياته، فإمّا أنْ يحتفظَ بعرشها أو أنْ يُدفَنَ تحت أنقاضِ أسوارِها!

لم يكن بُدٌّ بعد هذا من أنْ يستعِدَّ السلطانُ الفاتح للهجوم العام الأخيرِ، فجمع قادةَ جيشِهِ،

وأعلن لهم أنّ موعدَ الهجوم العام من البرِ والبحرِ على القسطنطينية حُدِّدَ بفجر اليوم التاسع والعشرين من أيار (٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ) ووعدهم أنْ تكونَ الغنائمُ كلُّها من نصيب الجند المجاهدين، فهو يهبُهُم الأسرى وكنوزَ الأموال، ويمنحهم ثلاثةَ أيامٍ كاملة بعد سقوطِ المدينة لجمع الغنائمِ والأسلاب، ولا يحتفظُ السلطانُ لنفسِهِ إلاّ بالمدينة: أرضها ومبانيها، وأعلن الفاتحُ لجنده أنّ مَنْ يصعدُ الأسوارَ في المقدِّمَةِ سيفوزُ بأعظم الصِّلات، فعمَّتِ الحماسةُ صفوفَ الجند، ووعدوا ببذل كلِّ التضحيات لتحقيق النصر القريب!

وأصبح الجيشُ العثماني يوم الأحد (٢٧ أيار) كلُّه صائماً، بأمرٍ من السُّلطانِ الفاتح، تزكيةً للنفوس، وتقويةً للعزيمة والإرادةِ، وتطهيراً للضمائر،

وطاف العلماءُ والمشايخُ بالعسكر، يحضُّون الجنودَ على أنْ يصدقوا الجهادَ في سبيل اللهِ، ويُخلصوا النيّاتِ والعزائمَ، لرفع رايةِ الإسلام فوقَ العاصمةِ النصرانية التليدة، وفي مساء ذلك اليوم، أُوقد الجنودُ العثمانيون بعد الإفطارِ النيرانَ والمشاعِلَ والقناديلَ في معسكراتهم وسفنهم، ودقوا الطبولَ ونفخوا في الأبواقِ، وضجُّوا بالهتافِ «لا إله إلا الله محمدٌ رسولُ الله» وارتفع صَخَبُ الجيشِ الإسلاميِّ إلى عنان السماءِ، وقد استحالت قبتها الحمراء لكثرة النيرانِ والأضواءِ، وانعكاساتِ أشعتها فوق مياهِ المرمرة والبوسفور، إلى مشهدٍ سِحْرِيٍّ يفتنُ الألبابَ، ويُثيرُ الروعةَ والإعجاب! وأطلّ البيزنطيون من وراءِ الأسوارِ، وقد أدركوا أنّ النهايةَ المحتومة أضحتْ قريبةً، وأنّ المسلمين مُسْتبشِرون فرحون بنصرِهِمُ

القريبِ، فطغى على جموعهم الوجومُ واليأسُ، وأسرعوا إلى كنائسِهم يبتهلون و يتضرعون، وعلا بينهم النحيبُ والبكاءُ.

وأمضى السلطانُ الفاتحُ يومَه التالي (٢٨ أيار) في إتمام استعداداتِهِ الأخيرةِ، وكان يطوفُ على كتائب الجندِ، ويخطبُ فيها، مُثيراً في النفوس العزيمةَ والحمِيةَ؛ وتفقد الفاتحُ مرسى أسطولِهِ في بشكطاش، يصحبُهُ أميرُ البحرِ حمزةُ باشا، ليتأكد بنفسه من تأهُّبِ الأسطول كلِّهِ للمشاركة في الهجوم العام، فجر اليوم التالي، وأرسل إلى جنو يي غلطة تحذيراً، كيلا يساعدوا المدينةَ المحصورة، لأنّه كان على علمٍ بما كانوا يفعلونه طوال مُدَّةِ الحِصَارِ.

وعادَ الفاتحُ إلى مَرْكَزِ قيادتِهِ، ودعا كبارَ قادته، وزوَّدهم بتعليماتِهِ وأوامرِهِ الأخيرة، وألقى فيهم

الخطبةَ التالية: «إذا تمّ لنا فتحُ القسطنطينية تحقَّقَ فينا حديثٌ من أحاديث رسولِ اللهِ، ومعجزةٌ من معجزاته، وسيكون من نصيبنا ما أشاد به هذا الحديثُ من التمجيد والتقدير، فأبلغوا أبناءنا العساكِرَ، فرداً فرداً، أنّ النَّصْرَ العظيمَ الذي سنُحرزه غداً سيزيدُ الاسلامَ قَدْراً وشرفاً، فيَجِبُ على كلِّ جندي أنْ يجعلَ تعاليمَ شريعتنا الغرّاءِ نُصْبَ عينيه، فلا يَصْدرُ عن أحدٍ منهم ما يُجافي هذه التعاليمَ، وَلْيَتجنَّبُوا الكنائسَ والمعابدَ ولا يمسُّوها بأذى، و يدَعوا القُسُسَ والضعفاءَ والعَجزة الذين لا يقاتلون، في أمان!»

أمّا الامبراطورُ البائسُ، فكان يعقدُ في اليوم نفسه مجلساً في قصره، حضره سائرُ الأشرافِ والأكابر، ورؤساءُ البعثات الأجنبية، وكان مجلساً

حزيناً، طلب فيه الأمبراطورُ من الحضور أنْ يقتدوا به، في افتداء ِدينِهِم ومدينتهم بأرواحِهِم، فدمعَتِ العيونُ، وتعانق القادةُ، وقد نذروا أنفسَهُم للفداء؛ وفي مساء ذلك اليوم ذهب الامبراطور إلى الكنيسةِ أياصوفيا لِيُصلّيَ آخر صلواتِهِ فيها، وازدحمَتِ الكنيسةُ بالمصلين الضارعين إلى الله ِأنْ يكشفَ عنهم البلاء، وكانت تلك آخرَ صلاةٍ نصرانية في أياصوفيا.

•

وقبيل مُنْتصفِ الليل غادر الامبراطورُ قصرَهُ، وركب حصانَهُ وراح يطوف على المدافعين وراء الأسوارِ، ويزوِّدُهم بكلمات التشجيع، وقد أعلموه أنّ الحركةَ في المعسكراتِ العثمانية لم تهدأ، وأنّ القومَ يُعِدُّون مُعداتِ القتال، ويتأهبون للهجوم العام، منذ أول الليل، وكان المطرُ قد بدأ يتساقَطُ

آنذاك رذاذاً خفيفاً، وكان رجاءُ البيزنطيين أنْ ينهمِر مدراراً، يجعلُ وابلُهُ الأرضَ موحِلَةً، فلا تثبت أقدامُ الأتراكِ وأرجلُ أفراسِهِم فوقها، فيُقلع الفاتحُ عن أمرِهِ بالهجوم والزحف، ولكنّ المطرَ لم يدمْ طويلاً، فقد توقف، وانقشَعَتِ السُّحُبُ، ولمع النجمُ في السماء، وخاب رجاءُ المحصورين في عون السماء، ولم يبقَ على بداية المعركةِ الفاصِلَةِ غيرُ ساعةٍ أو بعضُ ساعة.

وفي الساعات الأولى من صباح الثلاثاء (٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧ هـ/ ٢٩ أيار ١٤٥٣م) بدأ قَرْعُ الطبولِ في أرجاء المعسكرات التركيةِ، وتبعه نفخٌ مُتوالٍ في الأبواق، وجلجلتْ أصواتُ المهاجمينَ بالتهليل والتكبير، من جانبي البرِ والبحرِ، وأخذَتِ المدافعُ العثمانية تصبُّ نيرانَها بكثافَةٍ على المدينة من

الجهات الثلاثِ، ووجَّهَ الفاتحُ هجومَهُ إلى قطاع وادي ليكوس بين بابي أدرنة والقديس رومانوس، وكان الامبرطورُ يُرابطُ وراءهَ، وبدأ جنودُ الروملِلي والمتطوعين هجومَهُم على الأسوار من تلك الجهةِ، وألقوا مئاتِ السلالم والحبال وأدواتِ التسلُّقِ، وكان الفاتحُ على صهوةِ جوادِهِ، يرقبُ الهجومَ، ويرى صمود المدافعين وراءَ الأسوارِ، وهم يصبون قذائفَهُم من النار اليونانية على المتسلقين ويرمونهم بالصخورِ والحجارةِ الضخْمَةِ، ويقلبون السلالم بِمَنْ كان عليها، ويرى في الوقتِ نفسِهِ استبسالَ جنودِهِ الشجعان في معاوَدَةِ التسلُّقِ مرةً بعد مرة، حتى نجحَ بعضُهم في الصعود إلى الأسوار، وجرى تلاحمٌ بالأجساد بين المدافعين والمهاجمين، وقد هبَّ جوستنياني مع جنودِهِ المدرّعين، للقاء المتسلقين،

وتمكّنوا بما أبدوه من بأسٍ وقوّةِ مراسٍ وجلادٍ من صدهم، وتنفّس المدافعون الصعداء، وقد بلغ منهُمُ الارهاقُ مَبْلَغَهُ، ولكنّ السلطانَ لم يُمْهِلِ المدافعين، فأعطى الأمرَ بانسحابِ فِرْقَةِ الروملي، وأمر فِرْقَةَ جنودِ الأناضول بالهجوم، وكانتْ أضواءُ الفجرِ بدأت تغمُرُ الأفق بأشعتها عندما زحفوا على الأسوار، وألقوا السلالمَ والحبالَ، وتسلقوا عليها، وأدرك الأمبراطورُ ضعفَ الدفاعِ عند هذا القطاع واشتدادَ الضغْطِ عليه. فأمر بحشدِ المزيدِ من المدافعين وآلاتِ الرمي أمامه، وقاوم جوستنياني وجنودُهُ المهاجمين من جديد، مُقاومَةً عنيفةً مُستميتة، ولكنّ ذلك لم يَزِدِ المسلمين إلاّ حماسةً وحميَّةً واندفاعاً، حتى استنزفوا قوى المدافعين وأنهكوهم كلَّ الانهاكِ، وعندما صدر أمرُ السُّلطانِ بانسحابِ فِرْقَةِ الأناضول اغتبط

جوستنياني وجنودُهُ، وظنوا أنّهم نجحوا في ردِّ الأتراكِ، وتأهبوا للاستسلام للراحة عندما فوجئوا بنيرآنِ قذائفِ المدافعِ التركيةِ الضخمةِ، وقد رافقها هجومٌ ثالثٌ قام به جنودُ الفِرْقةِ الانكشارية، وهم خيرُ الجندِ العثماني تدريباً ومَهَارة وبسالة وإقداماً، وقد قاد زحفَهُمُ السلطانُ الفاتحُ بنفسِهِ إلى حافة الخندق الأمامي، وأمر بتغطية هجومهم برشقٍ كثيف من القذائفِ المدفعية والنبالِ والسهام، بحيث لم يعدْ أحَدٌ من المدافعين يجرؤُ على مدِّ رأسِهِ من فوق الأسوارِ، ونصب الانكشارية السلالمَ وقفزوا عليها كالأسودِ ـ كما يصفهم شاهد عيانٍ من النبلاء البنادقة في يومياته عن معارك الحصار، واسمه نيكولو باربارو ـ وهم يُكَبِّرونَ بأصوات مُدوِيَّةٍ. ألقتِ الرعبَ في نفوس أهلِ المدينةِ

المحصورة، فراحتْ أجراسُ كنائسها الحزينة تدق، داعِيَةً السكانَ إلى تقديم العون للمدافعين عند الأسوار.

وكان الهجومُ البحريُّ من جهتي ميناءِ القرن الذهبي وشاطىء بحرِ المرمرة قائماً على ساق وقدم. بدأته المِدْفعِيَّةُ العثمانية بقذائفها، وتحت سُحُبِ النار والدخان زحفتِ القواربُ إلى اليابسةِ، وانقضَّ منها المهاجمون بآلاتِ التسلُّقِ والحبال، والتحموا في صراعٍ عنيفٍ مع المدافعين الذين هبُّوا لصدهم، وقذفِ السلالم بِمَنْ عليها إلى البحر، ورمي القذائف والسهام على الأتراك، وهكذا عمَّ الهجومُ التركيُّ جهاتِ المدينة الثلاث، في معركةٍ ضاريةٍ شهدت أروعَ صورِ الاستماتَةِ والاستبسال من الطرفين، وبلغ فيها القِتالُ أقصى العُنْف، وقد عرف الطرفان

أنها الساعةُ الأخيرةُ الحاسمة لمعركة الحصارِ الطويلة، ووثب جماعةٌ من الانكشاريَّةِ إلى أعلى السورِ في قطاع وادي ليكوس، وكانو نحواً من ثلاثين جندياً فدائياً، يقودُهُم جنديٌّ عملاقٌ يُدعَى حسن طولوباتلى، وفي أيديهِمُ السيوفُ والتروس، ولم يُبالوا بالموتِ والقذائفِ والنبالِ المُنْهمِرَةِ التي صرعت قُرابةَ ثُلثيهم، وتمكَّن الباقون من تسلُّقِ السورِ، وخاضوا مع مَنْ تصدَّى لهم من المدافعين صِرَاعاً بالغ العُنْفِ، وأظهر الانكشاريُّ الفدائيُّ من ضروب البسالةِ ما روته المصادرُ البيزنطية بإعجابٍ والفضلُ ما شَهِدَتْ به الأعداءُ، فقد أصيبَ حسنٌ بقذيفةٍ ألقتْ به على الأرض، فتماسك ونهض على ركبتيه وظلَّ يُقاتلُ في حماسةٍ وحمية وإيمان، وتكاثر عليه الأعداءُ وهو يُناجِزُهم بضرباتٍ خاطفةٍ من

سيفه، حتى أَثْخَنَتْهُ الجراحُ، وخرقتِ النبالُ والرماحُ جسدَهُ، فخر البطلُ المسلمُ صريعاً، بعد أنْ أظهرَ للعيان أنّ الطريقَ إلى اقتحام المدينةِ غدا مُمهّداً، وأنّ وصولَ المسلمين إلى أعلى السور لسَحْقِ المقاومة فوقَهُ أصبح ميسوراً، واندفعت إثر ذلك أمواجُ المهاجمين تتسلّقُ السلالمَ، وأصِيبَ جوستنياني بجرحٍ بليغٍ عجز عن احتمالِهِ، فأزمع الانسحابَ من الميدان لتضميدِهِ، وارتاع الأمبراطورُ وأصرّ على القائدِ الجنوي الشجاعِ ألاّ يُغادرَ المعركةَ، وهي في عُنْفوانِها، لما في انسحابِهِ من أثر سلبي يفتُّ في عضد المدافعين و يُثبِّطُ عزائِمَهُم، غير أنّ جوستنياني ــ وقد بلغ به اليأسُ من مواصلة المقاومة والدفاع مبلَغَهُ ــ أصرّ على الانتقال إلى بعض السُّفُنِ الراسية في الميناء، ولم يستجِبْ لضراعةِ الامبراطورِ وتوسلاتِهِ،

وتبعه عدد من القُوَّادِ والجنودِ اللاتين الذين لم يروا فائدةً من الاستمرارِ في المعركة اليائسة، وكان انسحابُ جوستنياني ورفاقُهُ خسارةً فادِحَةً للبيزنطيين، في الوقت الذي بلغ فيه هجومُ المسلمين ذروةَ العُنْفِ، فبدأت حماسةُ المدافعين تنهارُ، وارتفعت معنوياتُ الإنكشاريةِ إلى الأوج عندما شهدوا السُّلطانَ الفاتحَ يُشارِكُهُم المرحلةَ الأخيرةَ من هجومهم مُشاركةً فعلِيَّةً فقد عبر الفاتحُ المجاهدُ بحصانِهِ الخندقَ، ليديرَ العملياتِ الأخيرةَ بنفسِهِ، واندفع المهاجمون يَصْعَدُون السلالمَ، والامبراطورُ يقودُ بنفسِهِ عند بابِ المدفعِ فلولَ المقاومة، عندما انطلقت من الجهة الشمالية للسور صيحاتٌ عاليةٌ، وصاحَ أهلُ المدينةِ مرتاعين: (لقد دخل الأتراكُ القسطنطينية) والتفتَ الامبراطورُ المقهورُ إلى ناحية

الشِّمالِ، فرأى الأعلامَ العثمانية تُرفرِفُ فوقَ الأ براجِ القريبة من باب أدرنة، فاندفع على فرسِهِ نحو الشِّمالِ، فإذا جموعُ الأ تراكِ تتدفقُ كالسيل، فترجّل عن فرسِهِ وانتضى سيفَهُ، وراح يخبطُ به المهاجمين ذات اليمين وذات الشِّمالِ، حتى كلَّتْ يداه، وأصابه سيفُ جنديٍّ من الأ تراكِ بضربةٍ قاضيةٍ، فخر صريعاً، وصِيْحَ في الناس:

ــ قد قُتِلَ الامبراطورُ

فازداد فزعُ البيزنطيين، وانهارتِ المقاومةُ، وفرَّتِ الجموعُ تلتمسُ لنفسها النجاةَ، واستطاع الأ تراكُ أنْ ينفذوا إلى المدينة بجموعٍ زاخرة من باب السيرك الصغير، وباب كالجاريا القريب من القصرِ الامبراطوريِّ، وباب المنار من ناحية الميناء، وفرّ البيزنطيون إلى أزقَّةِ المدينةِ على غير هُدَىً، واختنق

كثيرٌ منهم في الزحام، والمسلمون يُطاردونهم، وفرّ عددٌ من السكان إلى ناحيةِ الميناءِ، ولجأ آلاف منهم إلى كنيسةِ أياصوفيا، وأغلقوا أبوابَهَا في انتظارِ المُعْجزةِ التي كانوا يتناقلون من قبل أخبارَها، بأنّ ملاكاً من السماء ينزلُ عند سقوطِ المدينةِ بيد الأتراكِ، حاملاً سيفاً إلهياً يهزمُ به المسلمين! ولكنّ المعجزةَ السماويَّةَ لم تقعْ وخاب أملُ مُنْتظريها، وتمّ سقوطُ القسطنطينية، وأضحت مدينةً مفتوحة بحدّ السيف، وامتلأتِ السفنُ النصرانية الراسية في الميناء بالفارين وما حملوا معهم من أثْمنِ الأمتعةِ وأخفّها وزناً، وتُفيض المصادرُ البيزنطيةُ والغربيةُ في تصويرِ الأهوالِ التي انزلها التركُ بالمدينة عند افتتاحِهَا، من قَتْلٍ وتخريبٍ ونهبٍ وسبيٍ وأسر، غير أنّ لروحِ العصر وأساليب الفتح فيه أثراً في كلِّ ما

حدث، ولم تكُنِ الأهوالُ التي أنزلها النصارى اللاتينُ بالقسطنطينية عندما افتتحوها عام ١٢٠٤م أقلَّ مما عانَتْهُ العاصمةُ البيزنطية على يد فاتحيها الأتراك، بشهادة تلك المصادِرِ نفسِها، وعندما دخل الفاتحُ المدينةَ، بعد التضحياتِ العظيمةِ التي قدَّمها لتحقيقِ الفتحِ، لم يدخلها دخولَ الفاتحين الجبّارين، بل حثا الترابَ على رأسِهِ، خُضُوعاً لله وشكراً وحمداً، وأمرَ بتحويلِ عددٍ من كنائسِ المدينةِ الكبيرة، ومن بينها أياصوفيا، إلى مساجدَ إسلاميَّةٍ تُقامُ فيها الصلواتُ، وفي الجمعة أوّلَ حزيران ١٤٥٣ علا صوتُ المؤذنين من قبابِ مَسْجِدِ أيا صوفيا، وأدى السُّلطانُ الفاتحُ فيها صلاةَ الجمعة، بخشوعٍ كبيرٍ، وقد عمّتِ الفرحةُ قلوبَ المسلمين، بتحقيقِ الحُلُمِ الإسلاميِّ الكبير على يد الفاتحِ المجاهدِ

السُّلطانِ العُثمانيِّ مُحَمَّدٍ الثاني، وفي اليوم الثالث من الفتحِ الجليلِ عَثَرَ الأتراكُ على قبرِ الصحابيِّ الجليلِ أبي أيوب الأنصاريِّ، الذي اسْتُشْهِدَ عند أسوارِ القسطنطينية خِلالَ حِصارِ العرب الأول كما قدّمنا (عام ٥١هـ) وبذلك انتهتْ حكايةُ الفتحِ الإسلاميِّ الطويلةُ للعاصِمَةِ البيزنطية، التي أصبحت عاصمةً إسلامِيَّةً كُبرى لدولةٍ عظيمة، حملت لواءَ الاسلامِ إلى قلبِ أوربة، ووصلت جيوشُها إلى أبوابِ فيينّا، فأبعدت بذلك خَطَرَ الفرنجةِ عن المشرق العربي عدَّةَ قرونٍ، وحمَتْهُ من حملاتِهم وأحقادِهِمُ الصليبية خلالها.

خاتمة: نظرة تحليلة

يُعَدُّ الفتحُ العثماني للقسطنطينية نهايةً للجهود الإسلامِيَّةِ التي بدأها معاويةُ بنُ أبي سفيانَ للاستيلاء على المدينةِ، وجعلِها مُنْطلقاً لحمل رايةِ الإسلامِ إلى قلب القارةِ الأوربية، وشعرتِ الممالكُ النصرانيةُ في أوربة بالخطرِ الإسلاميِّ يقتربُ منها بعد انهيارِ خطِّ الدفاعِ الأول الذي كانتِ العاصمةُ البيزنطية تتحملُ أعباءهَ، وانطلق النافخون في نار الأحقادِ الصليبية على الإسلامِ يؤجّجون الكراهيةَ والبغضاء ضِدَّ الأتراكِ والعالمِ الإسلامي كلِّهِ،

لمقاومة الوثبةِ الإسلامية الجديدةِ وتحطيمِها، إلى أنْ تمكَّنَتْ أوربة النصرانيةُ بعد عدَّةِ قرونٍ من القضاء على الدولةِ العثمانيةِ، والامبراطوريةِ الكبيرةِ التي كانت تحكمها.

إنّ طابعَ العُنْفِ والتخريبِ في الفتوحات العثمانية وقف حائلاً دون انتشارِ الإسلامِ في البلاد المفتوحة، ودفعَ شعوبَها إلى التمسُكِ بديانتها، وكراهيةِ اعتناقِ دينِ الفاتحين الذين لم يلتزموا بعد توغلِهم في الفتوحات بتلك المثلِ العليا التي كان المسلمون الأوائلُ من العرب يسعون إليها، وهم يحملون رسالةَ الحقِّ والعدالةِ والحرية إلى الشعوب المسْحُوقة والمقهورة تحت ظلم حاكميها، ولذلك كانتْ تلك الشعوبُ تستقبلُ الفاتحين المسلمين، وتَعُدُّهم مُحرّرين لها، ولا تلبَثُ أنْ تنضويَ تحت

لواء عقيدتِهم؛ وعندما أقبل محمدٌ الفاتحُ على حصار القسطنطينية كان كثيرٌ من أهلها يُؤثرون عمامَةَ المُسْلِمِ على قبعةِ المندوبِ الكاثوليكي، ويجدون في محمدٍ الفاتح المسلمِ حامياً لكنيستهم الأرثوذكسية، وقد سار الفاتحُ على سياسةِ التسامُحِ نحو الأديانِ الأخرى، وعمَّ بعدلِهِ رعايا الدولةِ جميعاً، وبهذه السياسةِ الحكيمة اتسعت رقعةُ فتوحاتِهِ، وقامتِ الامبراطوريةُ العثمانية على دعائمها؛ وَغَدَتِ القسطنطينيةُ عاصمةً اسلامية كبرى، تحتلُ المقامَ الأولَ في الحياةِ السياسيةِ والفكرية في العالم الإسلامي.

ولكنّ الحكمَ العثمانيَّ لتلك الامبراطوريةِ الضخمةِ عجز عن توفير العناصر الإنشائية الحضاريَّةِ للأمم المُخْتلِفَةِ المنضويةِ تحت لوائه، وظلّ مُتمسّكاً

بنظامٍ يعودُ في أصوله إلى التقاليد التركيةِ الأولية وما أُدْخِلَ عليها من تعديلاتٍ وإضافاتٍ مُقْتبسةٍ عن نظام الخلافةِ العباسية الإسلامية والنظامِ الفارسي والنظامِ البيزنطيِّ، وعندما بدأت أوربا تسيرُ في طريق التقدُّمِ العلميِّ والاقتصادي والسياسي، ظلَّ الحكمُ العْثمانيُّ جامداً يرفضُ التطور والتجديدَ، في جميع الميادين: في الميدان العلميِّ توقف بابُ البحثِ والاجتهادِ والإبداع ـ وتلك ظاهرةُ انحطاطٍ شاملة للدول الإسلامية كلِّها حينذاك ـ بينما أخذتْ أوربا تحثُّ الخُطا في الاكتشافات العلميةِ الباهرةِ، والاكتشافات الجغرافيةِ الكُبرى. وفي الميدانِ الاقتصاديِّ ظلَّ اهتمامُ الامبراطوريةِ العثمانية لا يتجاوزُ أفقَ الفِلاحَةِ والضرائب، في الوقت الذي كانتِ الدولُ الأوربية فيه تتحوَّلُ من النظامِ

الإقطاعيِّ إلى الرأسماليةِ التجاريةِ، وإلى الثورةِ الصناعيَّةِ.

وفي الميدانِ السياسيِّ لم تأخذِ الدولةُ العثمانية بجديدٍ، بينما كانتِ الدولُ الأوربية تشقُّ طريقَهَا نحو الديمقراطية والأنظمةِ الدستورية.

لهذا كلِّهِ اشتدَّ التفاوتُ بين تقدُّمِ الدولِ النصرانية وجمودِ الدولةِ العثمانية، بعد قرنٍ واحدٍ من سقوطِ القسطنطينية في يد العثمانيين، ابتداء من منتصف القرنِ السابعَ عشرَ الميلادي، وراحتِ الدولةُ العثمانية تنحدرُ في طريق التدهورِ في القرن الثامنَ عشرَ، وقد استشرى الجمودُ والفسادُ في كِيانهَا، وراحتِ الثوراتُ الداخليةُ تُنْهِكُ قواها، وتُغري القومياتِ المُختلِفَةَ بالعمل على الانفصالِ عنها، وتعصّب الأتراك لقوميتهم أيضاً، وانتهى الحكمُ العثمانيُّ على أيدي المغالين في التعصب

لقوميتهم التركية الطورانية إلى هَدْرِ مُثُلِ الحقِّ والعدالةِ والمساواة، وبقِيَّةِ القِيَمِ التي لا يقومُ حُكْمٌ عادِلٌ إلاَّ بها، وبذلك حُقَّ للرجال الأقوياء أنْ يقتسموا تركةَ (الرجل المريض)ــ وهذا شعار الدولة العثمانية في شيخوختها العاجزةــ ولولا اختلافهم وتنازعهم على اقتسام الارث، لم يُتح للدولة العثمانيةِ أنْ تعيشَ عليلة إلى أوائل القرن العشرين!

غير أنّ هذه الصورةَ المظلِمَةَ السوداءَ للدولةِ العثمانيةِ في إبّان تدهورِها وشيخوختها وفسادِها، لا ينبغي لها أنْ تحجبَ عن عين القارىء العربيِّ اليومَ عَظَمَةَ الدَّوْرِ الذي نهض به الأتراكُ (المماليك والسلاجقة والعثمانيونَ على التوالي) في حمايةِ المشرقِ العربيِّ من الغارات البيزنطيةِ المتلاحقةِ، وأطماعِ الصليبيين وأهدافِ حملاتِهِمُ التدميريَّةِ الحاقدةِ، حين

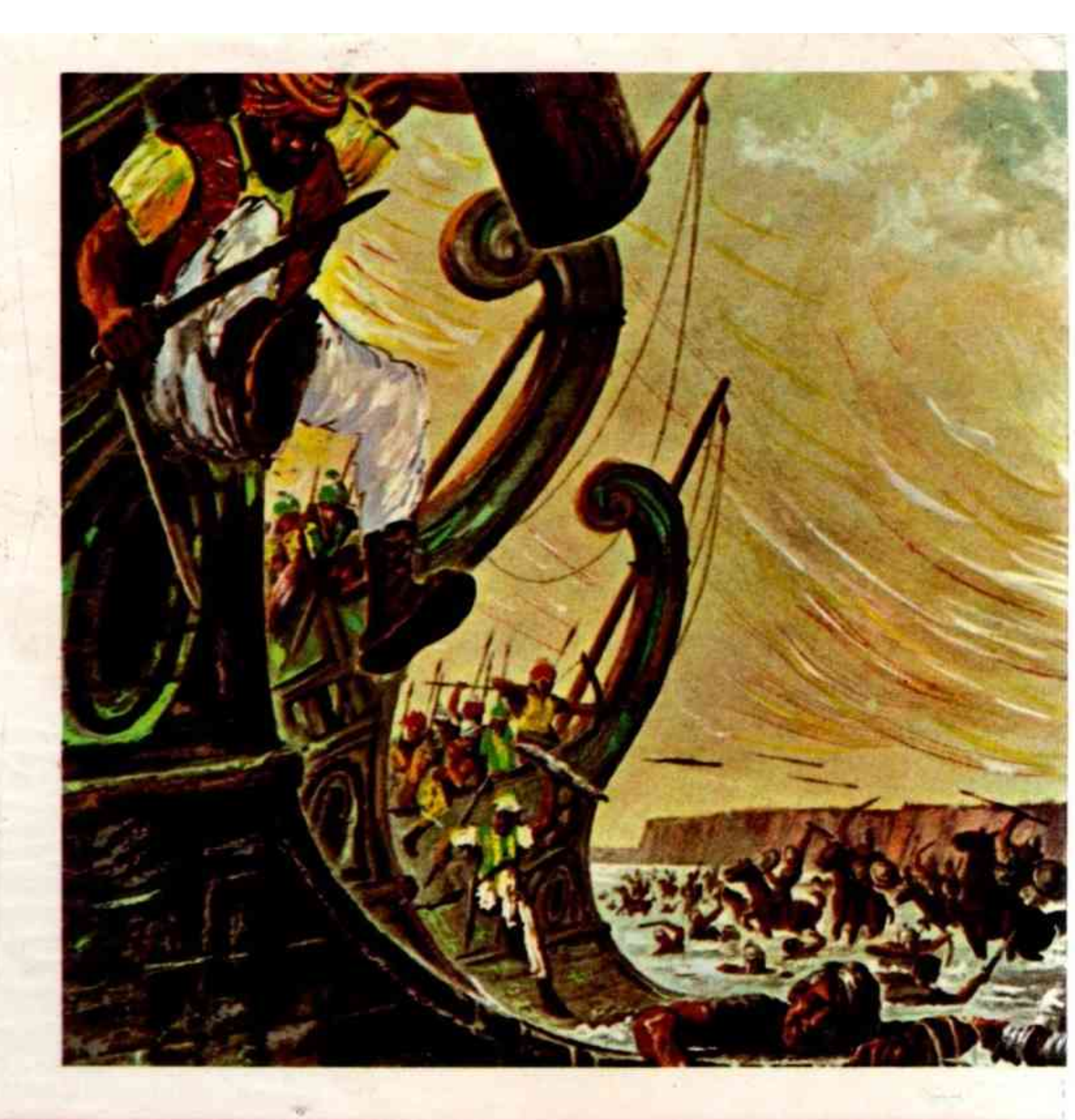
لم يكنِ العربُ قادرين على صدِّها ومقاومتِها والصمود في وجهها. وعلى هذا يكون فتحُ القسطنطينية وتحويلُها إلى عاصمةٍ إسلامية أروعَ ما قدَّمَهُ المجاهدون العثمانيون للعربِ والإسلامِ، عند نهوضِهِم بذلك الدور المجيد العظيم.

* * *

واليوم...

عندما نزورُ مدينةَ استانبول في تركية الحديثة، يروعنا أنّ أجملَ مُدُنِ العالمِ القديم، التي يَعُدُّها نابليون أصلحَ مدينةٍ لِتكونَ عاصِمَةً للعالم كلِّهِ، لم تَعُدْ عاصمة كبيرة ولا صغيرة! ولكنّها مع ذلك تظلُّ بمآذنها الرشيقة السامِقَةِ، ومساجدِها الجامعة الكثيرة، ومآثرها الإسلامية الفنية، شاهداً على عظمة ماضٍ حيٍّ لا يموتُ، وذكرى خالدة لمجد فاتحٍ مُجاهِدٍ عظيمٍ حقَّقَ للإسلامِ واحداً من أَحْلامِهِ الكبيرة..

المحتوى



معارك حربية فاصلة

عربية وإسلامية

شارك في تحرير هذه السلسلة

الدكتور صالح الأشتر

والدكتور عمر الدقاق

والأستاذ محمد الانطاكي

وأشرف على إصدارها

الدكتور صالح الأشتر

سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات من القرن الهجري الرابع الى العصر الحديث.

١ ـ معركة الحدث الحمراء ٢ ـ معركة الزلاقة ٣ ـ معركة حطين ٤ ـ معركة الارك

٥ ـ معركة المنصورة ٦ ـ معركة عين جالوت ٧ ـ معركة فتح القسطنطينية ٨ ـ معركة وادي المخازن

٩ ـ معركة ميسلون ١٠ ـ معركة الجبل الأخضر

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه الا القادرون على الموت في سبيله

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية

حلب ـ المسلمية ـ المنطقة الحرة ـ